مختارات فصول

٩٠

إدوار الخراط

ساعات الكبرياء

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مختارات فصول

سلسلة أدبية شهرية

(٩٠)

الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٩٤

DL

رئيس مجلس الإدارة

ا . د . سمير سرحان

رئيس التحرير

سامى خشبة

نائب رئيس التحرير

إبراهيم أصلان

مدير التحرير

خيرى عبد الجواد

المشرف الفنى

صبرى عبد الواحد

الغلاف للفنان

عماد حليم

ساعات الكبرياء

إدوار الخراط

مقـــدمة

صوت صارخ .. (فى الشوارع) ينادى بأسمك

من أروع مــا كتب فى قصصنـــا المصرى القصــير ، قصــة قــادرة على اجتيــاب المعنى الميتافيزيقى الذى جــرؤت عليــه دون أن تغادر أرض الواقع التفصيلى . قصة تمارس الرمز دون الاسفاف المعروف الشائع فى أدبنا المعاصر بل ترفعه الى ممارسة حية مستمرة تتماسك فيها عناصر الرمز نفسه مع عناصر التجربة الحية المباشرة ودون أن يتساهل الفنان مع قواعده الفنية العامة أو أن تهتز أركان جملته أو تفلت منه الجمل والتعبيرات فى هذا التحلل المألوف الذى نعرفه فيما يسمى القصص الرمزى . ولقد توصلت الى هذه الاحكام بعد نظر مطول فى القصة التى يختتم بها الفنان مجموعته لانها كانت مشكلة نقدية شغلتنى وقتا أطول مما شغلتنى أى من القصص الأخرى فى المجموعة . (فهى تفرض عليك الشعور بأنها « كلمة أخيرة » خطيرة يعرض فيها الفنان نفسه ويتعرض بها كما لم يفعل من قبل فى مجموعة الساعات بل هو يذكر اسمه فى آخرها وكأنما هو يريد أن يوقع على لوحة تمت ، والاحساس بأنه « قد أكمل ») الذى يريد أن ينقله الفنان هو فى ذاته معنى أساسى من المعانى التى يجب أن يكشف عنها النقد . فليس مجىء القصة فى آخر المجموعــة مجرد صدفــة أو مجرد ترتيب تاريخى حتى ولو كان هذا الترتيب

واقعا • ففى الخاتمة يريد الفنان أن يقول كلمة جديدة وأخيرة هى خلاصة ما قيل قبل ذلك وهى فى الآن نفسه رفع له الى مستوى جديد من التعبير والمعايشة • ولقد أحسست فى المتابعة النقدية لقصص المجموعة ان هناك فارقا ما بين قصص المجموعة كلها وبين القصتين الأخيرتين : « محطة السكك الحديد » و « فى الشوارع » • وأن شيئا متميزا خاصا فى كل منهما يخلق مسافة معينة بينهما وبين قصص المجموعة ، وظللت أتساءل وأراجع ما كتبت فى المجموعة من قبل حتى انكسرت الغربة وان ظلت المسافة • وهنا أضاء المعنى وظهرت القيمة الحقيقية للقصة كواحدة من أروع شواهد التعبير فى أدبنا عن الوقفة الميتافيزيقية أمام الموت ـ بأى معنى ـ الذى يفترس الحياة كالوحش وأصبحت القصة فى الآن نفسه كما قلت تكليلا لتجارب القصص السابقة وتأكيدا لها وكأنها التصور الكلى الذى يعقب الشواهد أو المفهوم المجرد الذى تندرج تحته جزئيات التجارب فى « ساعات الكبرياء » •

على ان هذا المستوى المجرد للقصة الأخيرة بالنسبة لقصص المجموعة يقدم لنا نقطتين أساسيتين أو على وجه أصح درسين هامين للأدب والنقد • أما الأولى فتتعلق بأن التجريد لا يمس خصائص الجملة التعبيرية عند الفنان ولا يمس وسائل الفنان الخاصة المتميزة فى طرق وصفه أو نظرته للموضوع أو حسبه أفعاله أو حتى استعماله للكلمات العامية الخاصة الحميمة •• والموقف الميتافيزيقى الفنى هو الموقف الذى يحتفظ فيه الفنان بكل خصائص تعبيره المحسوس والا فقد صفته الفنية وحرم عمله من مادة ودم حياته • وتوصل الفنان الى هذا الموقف علامة من علامات النضج الحقيقية والسيطرة على رسالته وهو يحتاج من الأديب والقارىء الى نظر طويل وتحليل دقيق خاصة وقد شاعت جرأة على المعانى الميتافيزيقية فى أدبنا المعاصر فى غير موضعها نتيجة للتأثر بالأدب الغربى ومدارسه ويمارسها البعض دون أن تتوفر لهم امكانيات الحياة

والتنفس والعمل فى الجو الميتافيزيقى • أما فنان « فى الشوارع » فهو يمارس قدراتـه كاملة على الوصف المفصل الذى يثبت المناظر فى حسية كاملة متكاملة تجتاب المنظور حتى يفرغ أو يوجد ويصبح طاقة متدفقة فى تيار واحد للتجربة • وقد يكفى أن أشير هنا ـ كى يراجعها القارىء ـ الى تلك الفقرات التى يصف فيها الفنان ، بجمله وطريقته المعتادة زحمة الاوتوبيس التى تحولت الى نوع من العجينة الثابتة الرخية ، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود » أو وصف عربة التين الشوكى « هناك وحدها ، متميزة قاطعة الحواف •• أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء •• وأكوام الحبوب •• نباتات عصية وكثيفة الغنى ، لا تبالى تحديها لا ترد عليه » • كل خصائص الجملة والتعبير موجودة حتى تلك اليقظـة للجسد والـوعى المستمر بما فى الانوثـة وما فى الألوان من تعبير وجودى (انثولوجى) •• فالزهور التى يحملها الصبى على الدراجة هى زهور أثيثة « مكتنزة الجسد طرية غضة ، يتدفق غنى ألوانها فى النور ، فى لدونة لحم حى وثير •• ملفوفة الى بعضها بخيوط خضراء من أعواد نبات ، أشرطة حمالات تحز فى بضاضة البياض وفى نداوة الألوان الورديـة وتحدى الحمرة اليانعـة وكثافـة الزرقة المليئـة بالعصير •• كأنما غرق فى لحظة فى طيات جسد امرأة باذخة فى لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة » (ص ٩١) • وليس هنا ما يدعو الى الاقتصار على هذه النماذج من الوصف أو المناظر ، فالقصة مليئـة تستثير عالم القاهرة المعاصر كله وتتعدد فيها المناظر الصغيرة والكبيرة تعددا كثيرا • ولكنه مع ذلك تعدد فريـد بالنسبة لتعدد المناظـر والوصف فى القصص الأخرى • فهذه مناظر تتلاحق بقدر الاستقلال لكل منها ، اعتمادا على أن يقوم المعنى العام للقصة أو الرمز المستخدم بها بشدها كلها بعضها الى البعض الآخر فى رحلة مع الفنـان فى الشوارع ، فعلى حين تجد المناظر والوصف ثابتا وتتوالد من بعضها فى القصص الأخـرى داخل اطار محكوم مقدما بالبنـاء التشبيهى

للعمل ، نجدها فى هذه القصة الأخيرة متلاحقة عليك أن تتابعها أنت بدقة وأن تلهث وراءها وهى تتلاحـق أمامك حتى لا يضـل منك خيطها ومعناها ٠

وينقلنا هذا الى الدرس الثانى وهو المتعلق بالرمز ، وقد يكون هذا الحديث صعبا على القارىء اذا لم يكن قد قرأ القصة ، بل لقد يكون صعبا عليه حتى اذا قرأها قراءة عارضة ٠ ولكنه مسلك وعر على أية حال علينا أن نجهد ويه لنتبين طريقة وخطوات تكوين الرمز عند الفنان وانعكاسه فى التجربة الفنية المصنوع منها العمل ، فهذه اذن محاولة لتعقب خطوات الخلق الفنى وهو يجاهد للامساك بالمعنى الذى يبدا غامضا حتى على الفنان ليزداد مع العمل وضوحا وتطلبا ٠ ومثل هذا التتبع قد نختلف فيه مع القارىء الذى قد يريد أو قـد يستطيع أن يسلك طريقا آخـر للفهم أو التذوق ، وهذا حـق له لا جدال فيه ٠ بل قد نختلف فيه مع الفنان نفسه ، وان كنت أعتقد ان الخلاف فى هذه الحالة سيظل على جزئيات من المعانى الجزئية أو على بعض دلالات الصور المنفردة دون أن يتعلق بالمنحنى العـام لعملية الخلق أو بالمعنى الكلى للعمل ٠

وعلى الرغم من اننى قد بادرت فى مطلع هذا الحديث بالاشارة الى الموت على أنه تحديد للرمز فى القصة ، فاننى لم أقصد أن يكون هذا التحديد ميكانيكيا أو حسابيا بسيطا ، فسوف نستقصى معا كيف يتكون الرمز وخطوات صناعته وأنواع المعانى التى يتلبسها مع استمرار عملية الخلق ٠ ولكننى قصدت أساسا ان اصادر مقدما على نفى احتمال فهم القصة فهما يشير الى معان اجتماعية أو ان يفهم الرمز على أنه اشارة لألم أو توجع سياسى أو تاريخى ، فالقصة فى نظرى معالجة للمعنى الميتافيزيقى الشامل لتجربة الأبطال كلها فى قصص الساعات ، وهو تلخيص لمواقفهم السابقة المقررة فى أواخر القصص ، وهذا ما أرجو أن يتضح من المعالجة التفصيلية لصناعة القصة وتطور عملية الخلق والرمز فيها ٠

تحدث القصة فى شوارع القاهرة المعاصرة خلال يوم واحد يبدأ بوقفة أمام المرآة للحلاقة فى البيت ثم رحلة فى الشوارع فى شبه مطاردة أو صراع مع وحش غير محدد أو مسمى ، حتى تنتهى بمحاولة مجدة للرجوع الى البيت الذى « يبدو أنه بعيد » • وتحدث الأحداث فى « نور الصبح » الذى هو أقرب الى الصبح الباكر وما يلبث بعد حادثة لاوتوبيس كاد أن يقع فى النيل أن يتغير الى « نور الصبح العادى الثقيل »الذى يقترب مع الرحلة فى الشوارع الى « وقدة الظهيرة » ثم نجلس فى « همود الظهيرة » مقتربين من العصر حتى نسلك « فى المغرب البرونزى الصدىء القاتم الخضرة » ونصل الى الحلم المجهد الذى يسمع فيه الفنان من ينادى باسمه الحقيقى « فى آخر نور المساء » دون أن نصل الى البيت • وقد كان من الممكن أن نقسم القصة الى حلقات لتحليلها حسب تغاير نور النهار ، ولكن النور ــ فى الحقيقة ــ لا يصنع الا اليوم من الحياة الذى قد يكون كل يوم ، دون أن يقربنا بذاته من الوحش أو أن يطلعنا على الصراع الذى يعرف الفنان أن عليه أن يعد عدته له دون أن « يعرف أين يحدث ولا كيف يخرج منه » •

ولكننا قد نستطيع أن نقسم القصة داخل أوقات النور الى مراحل سبع حسب ما استطعت أن أميزه من مراحل تشكل الوحش وتحدد الصراع وتكشف المعنى واستكماله • وعلى الرغم من تعاقب هذه المراحل الا أنها لا تتلاحق تلاحق القصص ولكنها تتجمع تجمع البناء الموسيقى الذى تتكرر فيه النغمات وتتآزر متغيرة متفاوتة العمق والايحاء حادثة فى الوقت دون أن تخلق الزمن أو تفترضه •

الاثارة البوليسية والقلق الداخلى :

فى البداية نواجه مواجهة أقرب الى ما يحدث فى الروايات البوليسية بتوقع غريب واعلان خفى عن وحش فى المدينة• ويصاحب هذا التوقع نغمة خاصة فردية من القلق والتأمل فى تجارب من

واجهوا الوحش أو من يظن أن ذلك قد حدث لهم . البداية اذن منقسمة الى هذين القسمين من القاء التوقع فى الخارج وتحسس القلق فى الداخل ـ وهذا الجزء الخاص بالتوقع فيه الكثير من الجمجمة التى استخدمها الفنان نفسه لابتعاث عمله دون أن يكون قد استكمل فيه بعد . ولهذا تقع فيها معان فجة أو مبتسرة يستبعدها الفنان بعد ذلك فى بقية العمل وبعد ان تؤدى دورها فى خلق التوقع . ونظرا لأن هذه المعانى كان من الممكن أن تمثل منزلقا للفنان صانه الفن منه بعد ذلك ، فانها تظل تمثل أجزاء لا ضرورة مطلقة لها وكان من الممكن الاستغناء عنها . وهذه المعانى تتمثل فى جمل مثل : « سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر ، ولكنها تحرص على أن يكون ذلك من غير اعلان ، حتى يأتى اليوم المشهود » . فليس فى القصة دور تال لقوات الأمن وليس هناك يوم مشهود قادم . بل ان تصور « يوم مشهود « يتم فيه التغلب على الوحش هو تصور غير قائم وغير ممكن فى بقية العمل . ان الجملة ، كما قلت ، منزلق أحدثته الرغبة فى استخدام الاثارة البوليسية التى ليس لها مبرر حقيقى، ومن هذا النوع أيضا الجملة . « صحيح انه التقى بمحض الصدفة ، باثنين أو ثلاثة من معارفه القدامى ، وكانت الأخبار قد ترامت اليه أنه اعترضهم فى الشارع ، وان شيئا ما قد حدث » . والمزلق هنا هو فى ذكر العدد اثنين أو ثلاثة ، فليس ما يدعو لقصور هذه القلة فيمن تعرض لهم الوحش حسبما تتطلب بقية القصة . وفيما عدا هاتين السقطتين فى نغمة الاثارة فانها توفق فى خلق الشعور المطلوب من أن المدينة فيها وحش خفى خطير .

ولكن الذى يخلق حقا الاثارة هو القلق الذى يهدد النفس من الداخل والوصف النفسى لتجارب الآخرين الذين تعرضوا للوحش وصور المدينة المزدحمة التى يقع فيها اللقاء الغريب معه . وهذه النغمة الثانية المركبة هى التى تضع البطل وهو الفنان المعانى ،

تضع العلاقة الميتافيزيقية مع الوحش ، كما تضع المكان أى الشوارع التى ستحدث فيها القصة • ما أغرب ان تضع يدك فى بذرة العمل الفنى وهى تستعد للتفتح حاملة كل خصائص النبات الناضج •

يبدأ العمل كلماتـه الأولى بالعينين اللتين تنظران الى العينين « قاسيتين معاديتين يعرفهما طول عمره تواجهانـه بصمت ، من غير لغة ولا يريد أن يرد عليهما • هذه الغربة الغريبة عن الذات ، هذا التوقف أو العجز عن الاتصال حتى بين الانسان ونفسه هل هما الوحش الذى يفترس المرء ؟ انه سمة من سمات الوحش ولكنه ليس هو ، فوراء العينين «هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل» • انه قلق مثل جلد الوجه « ينعمه ويصقله ويغطيه » ويكحته بالمنشفة « كانما يريد أن يمحو شيئا لا يرى ولا يسمى » • ولكنه لا يستطيع أن يذيبه أو ينساه أو أن يتجاهله « بل يقبله ولكن يدفعه بعيدا تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شىء »• هذا هو الوضع الانسانى أمام الوحش الذى هو أقرب للمرء من جلد الوجه ، لا يستطيع المرء أن يواجهه الا بالرجاء « والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شىء » • ولكنه قد حدث للآخرين حتى وان كانـوا معارف قدامى ، فهل حقا صحيح ان من الأولى أن « لا يعتقد أن الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة » ؟ حقا ان أولئك الذين حدث لهم هذا اللقاء أو شاع عنهـم ذلك « يظهرون بمظهر طبيعى جـدا » • بل ويرغمك هذا المظهر مع المعرفة ان تسلم عليهـم « بحرارة أكثر قليلا ــ قليلا جدا ــ من المعتاد » • ولكن هذا المظهر الطبيعى وتلك الحرارة الأكثر قليلا من المعتاد لا يؤكدان الا فقدان الاتصال والغربة ولا يكشفان الا عن غموض وسرية تلك التجربة التى « يطوون عليها نظرتهم المرتدة الى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة » • هل هـم « يستحقون ما وقع لهم على أية حال » ؟ هل هم مسؤولون بالتصدى

والخروج الى الوحش عن ذلك ؟ ولكن كيف يمكن أن يحدث ذلك ؟ وماذا يمكن أن يحدث ـ على أى حال ـ فى الشوارع ؟ ..

وهكذا تتحدد كل أسئلة القصة الأساسية حول القلق المعجون مع الجلد وحول غربة الذات عن نفسها وانطواء الآخرين على أنفسهم وعلى سرهم ، ثم هذا السؤال ـ الذى يجدد القلق كما يجدد الرجاء والتعلل ـ عن مسئولية الفرد أو الآخرين عما يحدث لهم من لقاء مع الوحش.. « فى الشوارع » .. « بين الاوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة .. بين عساكر المرور .. وجزر البلاط الضيقة .. وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة وعربات الفاكهة .. » بين كل هذا وهو العالم كله وقاهرة القصة ، تلتقى الأسئلة الأساسية كلها ، متجمعة فى العينين اللتين تطلان على نفسهما فى المرآة وتسألان السؤال البسيط الساذج الذى يحرك ويعطيها نموها القادم .

« ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم ، ان يكون قد فعل بهم ، فى الشوارع وفى وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور واعلانات النيون ؟ » .

وتنتهى الحركة الأولى من القصة والبطل « يريد أن يمحو شيئا لا يرى ولا يمحى » هو القلق والوحش والقصة القادمة .

امتلاك القدرة على الرمز :

وكما بدأت الحركة الأولى من القصة بعينين صامتتين فى المرآة تبدأ الحركة الثانية بأوتوبيس غاص بالناس ينطلق « صامتا على حافة النيل » ولكن العينين كانتا قاسيتين معاديتين تبعثان القلق . أما الأوتوبيس فكان يحمل زحمة « قد تحولت الآن الى نوع من العجينة الثابتة .. وأمنت لحظة من لجاجة شد وجذب لا ينتهى » وجدرانه « توحى بالاطمئنان فى قوتها الذاهبة الى غرضها لا تحيد » والناس جميعا بداخله قد استقروا «لحظة الى نوع من الرضا والقبول

ـ ما أندره ـ بين الناس بعضهم البعض » • بل ان صاحب العينين نفسه « كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة بل مريحة وهواء النيل القادم عليه من شباك الأوتوبيس » ينفحه •• « بنشقة تملأ قلبه براحة أخرى » •

هذا الخارج للقاء الوحش المتصدى للقائه دون أن يعترف قد آوى لحظة « الى ذخر من التعلات » مثله مثل بقية الناس فى الأوتوبيس ، وعلى الرغم من أن هناك ما يشعرك بأن هذه النغمة من الراحة والتفاؤل خطرة حرجة سواء من جلسته التى هى « فى وضع حرج » أو احساسه بأن التعلات والاطمئنان الى لون من الراحة هى مثل « ذكاء الحيون الذى يريد أن يتشبث بالحافة ، ولا يقع » على الرغم من ذلك تتصاعد النغمة الى قمة « كأنها صرفية » وتختتم « برؤية لمركب وحيد فى النيل فى وسط براح الماء » و « تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة مياه النيل » شراع أبيض مفرود •• روح قوية عريضةالجناح ، تشق طريقها بتوق وجد الى السماء الباردة الزرقة يحملها جسم هزيل خشبى ضامر •• وسط تيه شاسع •• « أهو وجد الصوفى الذى يتوصل الى رؤية أم وهم الغافل المخدوع أم هى طبيعة البشر على أية حال » ، روح قوية يحملها جسم هزيل وسط تيه شاسع •

ووسط بطانة على الشط من مناظر الخضرة المطهرة « المغسولة من سوقية الحسابات العارية » تتوقف النغمة فجأة بصرخة من الفرامل « ناقية كاشطة تنوح » • ولقد وقع المحظور وبدأ تشكل الوحش ، والحيوان الحى سواء كان انسانا أو أوتوبيسا من الناس يتشبث بالحافة يريد أن يقع ويحتمى « فى حمى البحث عن الخلاص واليقظة الحادة » يريد أن يصعد مثل السجلات « على حرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان » • لقد كاد الأوتوبيس أن يقع فى النيل وهو يتفادى سيارة نقل تحمل أعواد الحديد الصدىء الباقى • ان الحادث يقع ولا يقع ، والحدث هو ما كان متوقعا وهو غيره ، انها هزة

من صلب القلق القديم فى المرآة ولكنها لا توصلنا مباشرة الى الوحش بل تكتفى بأن تطلق نغمات الوصف العنيف السريع الذى يستحيل فيه « تراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل » الى « تقلبات متعاقبة من الأرض والماء والأسفلت والطين المتماسك » وشهقات الأوتوبيس المتقلبة الزئير وهو يزوم فى هدير صور ممتلىء ‥ نغمات يرتفع فيها اللون والصوت الى حد عال من الضجيج ينتهى الى منظر جامد على هذا الحرف بين الحياة والموت ، بين اللقاء والتوقع ‥

وتختتم الحركة الثانية للقصة فى لوحة ساكنة كأنها سؤال قاطع تصوغه عربة تين شوكى تقف مضادة للموكب السارى على النيل « هناك وحدها متميزة قاطعة الحواف » فتعيد القلق الذى كان « نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل » ويتجدد أيضا نفس التساؤل عن التواصل والفهم المتبادل وغربة الفرد حتى على نفسه ليتكوم مع « أكوام الحبوب الشوكية ، نباتات عصبية وكثيفة الغنى لا تبالى ، تحديها لا رد عليه » • فهل هذا التحدى هو نفس ما كان فى العينين فى المرآة عندما كان « لا يريد أن يرد عليها » ؟ لقد أصبح المعنى من الوضوح والقطع حتى كاد أن يكون شائكا اذا أدمت النظر اليه • وعند ذاك يومض على صفحة الماء بجانب الحبوب شعاع « لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه » •

وهكذا لا ينتهى القسم الثانى من القصة الا وقد تملك الفنان أدواته الرمزية واستكمل قدرته على أن يحيل المنظر والحدث الى طاقة ذات دلالة تعبيرية تشارك فى دلالة الرمز كتجربة وتصور • وسوف يظل الطريق الى تملك هذه القدرة عند الفنان سرا لا يستباح تماما مهما بالغنا فى تعقبه • لانه فى كل مرة يقطعه الفنان فانما يقطعه على نحو خاص وبوسائل جزئية محددة ولكنه ينتهى مع ذلك الى تحقق تلك الخاصية العامة أو تلك القدرة التى تجعل الفنان وكأنه ميداس يحيل كل ما يلمسه الى هذا المعنى الذى انطوت عليه روحه ،

فاذا بالكون كله يتحول حواليـه الى هذا الرمز الواحد الكبير الذى صنعه بلغته أو قدرته ٠

وقد يستطيع القارىء من التحليل السابق أن يتبين مجموعة من الوسائل الفنية التي خقق بها الفنان هذه القدرة سواء فى تركيب الجملة أو فى طرائـق الوصف من حيث استخدام اللون والصوت وأفعال الحس ، ثم هذا الانضباط فى حساب طاقات الجمل التعبيريه وجعلها تتردد على مستويات مختلفة حتى تتشبع بالمعنى وتتكون لها أبعاد الدلالة ، ولكن يبقى دائما بالنسبة لكاتب « ساعات الكبرياء » أهم خصائص وسائله الابداعية التى مكنته من تحقيق هذه القدرة وهى تلك الخاصـة – فى التطابق بين الشبه والمشبه بـه عنده بحيث يصبحان معا موجودين فى كون مشترك واحد هو بناء العمل نفسه كما فى معظم قصص المجموعة أو احدى دعائمه الأساسية كما هو الحال مع قصـة « فى الشوارع » ٠ وقد يستطيع القـارىء أن يتذكر دور المركب الشراعى على النيل وعربة التين الشوكى فى هذا القسم من القصة ليرى هذا التطابق بين وظيفتهما كمشبه به لحال فى النفس أو معنى ووظيفتها كجزء من الموجودات فى عالم القصة ، تمسها الأحداث وتعتنى بها ٠

الصراع فى عالم الرمز والحوار الطقسى :

ولكن فلنقف اذن مع تلك القدرة الغريبة أيا كانت وسائل تحقيقها لنعرف ماذا ستفعل بنـا وبالفنان ٠ انها ستلقينا وجها لوجه مع كل معنى القصة دون أن تفضها أو تنهيها ، ستجعلنا نواجه الوحش على نفس المستوى من الرمزية والدلالـة التى يقضى فيهـا القصص الديني وما أشبهها مثلا بقصة يعقوب فى سـفر التكوين (٣٢ : ٢٤ وما بعدها) وهو يصطرع طول الليل مع ٠٠ من ؟ مع رجل ، نفسه ، ملاك ، الله !! ان مثل هذه المواقف تحتمل أكثر من دلالة ، وان كان نقل الرمز فيها موحدا ، بل ان على القارىء أن يتوقع

أن طاقة التشكيل ، أي ارتداء أشكال متعددة ، ستكون كبيرة ، وان قفز الكائن الذى يحمل ثقل الرمز من شكل الى شكل أمر منتظر ضرورة يجب أن تلاحقه قدرة على التبصر بتغاير المعانى بل وتناقضها أحيانا دون أن تتغير المعانى أو تتنافى · ومع هذا الانفتاح فى المعنى وصحة أوجهه الكثيرة تأتى خطورة الجزم أو الحسابية فى تحليل الرمز لان ذلك فى حد ذاته افساد للحظة الخلق وتضييق لقدرة التلقى ·

اننى أطيل الحديث فى شروط الدخول الى الحركة الثالثة من القصة وكأنما أتوجس وأخشى منها وأريد أن نحتشد لها معا فهى صعبة غامضة · فلن تنتهى هذه الحركة حتى يكون البطل « قد رآه ، التقى به ، وحده فى قلب الميدان » ولكن كيف حدث هذا وماذا حدث ؟ انه يقول : « وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث·ما يحدث بالفعل · وهو أيضا لن يقول لأحد أبدا » · لقد عرف « ماذا يمكن أن يحدث » أى عرف امكانية الحدوث القائمة دائما لهذا اللقاء مع الوحش وعرف « ما يحدث بالفعل » أى أنه يقرر أن اللقاء حدث فعلا هنا وهناك معه ومع غيره · ولكن ماذا حدث ؟ هذا السؤال البسيط جوابه هو القصة نفسها · ومع ذلك فالفنان البطل « لن يقول لأحد أبدا » · فهل قال ؟

ان هذا السؤال هام فسوف يشغل جزءا تاليا من القصة· ولكن يبقى سؤال أسبق من مشكلة الافصاح ، هو السؤال عما حدث ؟ ان الافصاح حد ، والوقوع أو الحدث نفسه حد آخر ، غير ان هذا الجزء من القصة هو تصد فى الوقت نفسه للعزم على عدم الافصاح وللاحاطة الموجدة بما حدث · فهل سنستطيع أن نجد الأجوبة عن الأسئلة : ما هو الوحش ؟ وما معناه ؟ هل هو حيوان ؟ على صورة جمل مثلا ؟ له سنام صغير وله« أقدام ثابتة لينة على الأسفلت الأسود » ·· « يخب بنوع من الرشاقة المهتزة الثقيلة » وله لسان عريض أحمر « مبرد خى مشحون بطاقته » يخرج عنه « صوت الهرير

العميق الأجـوف الخشن » أم هو رجل ؟ فى صورة رجل من رجال الأمن مثلا ؟ له مقدرة « خارقة على القبض والتملك • أم هو مزيج من أكثر من حيوان ، فيه « السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاباتها العظيمة » كما له مخالبه « المشرعة الثاقبة الممزعة » ؟ بل ان التساؤل يتناول أكثر من مجرد شـكل الوحش ليتعلق بوحدته ؟ فهل هو واحد أم كثير ؟ وهل المعركة أو الصراع الذى حدث مع واحد أو أكثر ؟ بل ان السؤال لا يزال مشروعا اذا ما ذهب الى أبعد من ذلك وسألنا : هل حدث الصراع فعلا أم هو مازال متوقعا ؟ ان الاجابة على كل هذه الأسئلة لا يمكن أن تكون نهائيـة قاطعة وهى بصورها المختلفـة صحيحة على نحو ما •

ولكن يبقى السؤال الأكبر عن المعنى ؟ دلالـة الوحش ؟ عن حقيقة الرمز ؟ ما هو ؟ قد يكون هذا هو الأهـم ، ولكن فى الفـن لا يفترق المعنى عن الشكل • وفى ذلك الجو الرمزى الذى يصبح فيه أكثر من شكل يحق له أكثر من معنى • وليس علينا الا أن ندخل مع الفنان « الى ميدان التحرير آتيا من اتجاه كوبرىقصر النيل » ساعة ان تبدأ هذه الحركة فى القصة حتى يتساءل عند نهايتها عن قدرته على القيام بالمهمة التى حملها اياه الصراع ، فلنتقدم معـه خطوة على رمزيته وغموضه محدد الخطو والاتجاه •

دخل ميدان التحرير « تحت نور الصبح العادى الثقيل » • بعد الحادث فى الأوتوبيس وبعد المركب الصغير وعربة التين • دخل « وما زالت قدمـاه غير متوازنتين » ولكنـه يرى الأشياء ويسمعها واضحة فى الشمس وكأنما يسمعها ويراها « لأول مرة » • ومع تلك القدرة على أن تكون الرؤية والسمع لأول مرة تتحرك دائما فى معنى أكثر مما تتحرك فى حـدث ، وتصبح المرئيات دلالات لها تاريـخ وقيمة مستخلصة ، كما تصبح المشاعر أحكاما • لقد استحال الميدان كله بكل ما فيه من بنايـات المجمع والمتحف والعمـارات القديمـة

بل وحتى الهيلتون الى « ميدان في وسط بلد ريفيــة » وكل هذه المناظر المدنية « بهائم ضخمة كسول حول الجرن » . الأوتوبيسات خلية « لا تدور حول مركز اشعاع » وأنوار النيون تثير التساؤل « لماذا أضاؤوها في نور الصباح ؟ » . هل الوحش أو معرفته أو توقعه هو الذى أحال الميدان الى هذا المستوى من الريفية وقلــة التحضر وفوضى في الهيلتون « سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بمساحات مقطوعــة من الألوان الجارحــة » ؟ هل هذه كلها أحكام من النقــد الاجتماعي وتوضيح لما سببه الوحش في المدينة ؟ قد يعطينا كل هذا اشارة الى دلالــة الوحش ومعناه كمركز له القــدرة على ضرب مستوى التقدم وارغام الدافع على التحضر على أن ينحسر عن المدينة ؟ هل هذه القدرة الاجتماعية هي التى أصابها الوحش فجعــل الناس ظلالا قائمة في الشمس « تسير في غير سرعــة وفي غير بطء محنية بجسمها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة ، لا أمن لها الا ركن الحيطان وأمن الأثاث والكراكيب والمكاتب والسراير الرثة » . نعم كل هذا صحيح ، والمعنى الحضارى أو الاجتماعي للوحش يعد قائما في القصة لا مهرب منه ، وقد يكون في هذا تبرير لبعض الاشارات في مطلعها الى أفــراد أصابهم الوحش فراحوا يخفون ما حدث لهــم ولا يتكلمــون عنــــه وجميعهم يحمــلون (آثـــار تشوهـــات) لا تبدو عليهم .

غير ان قــدرة البطل على الرؤيــة مرتبطة بقدرتــه على الحياة الخاصــة الحميمة ، فاذا بالفنان يتحرك من صورة الميدان في بلد ريفية ليقابلها بصورة من صوره الثابتــة التى يستخدمها لتحريك المعنى واثرائه والتى يشبه بها حالات الداخل رغم انها واقع عارض في الخارج ، فيضع أمامنــا عجلة صبى الجنايني تحمل « الأزهار الأثيثة المكتنزة الجسد » وكأنما تأتى من عالم آخر يستثير مجد الحس « ولحظة الحرارة الأخيرة الناعمة » في طيات جسد امرأة باذخــة . فهل هو عالم آخر فعلا أم هو العالم الذى يدافع عنــه الفنان والذى

يفترض حق الفرد فيه ؟ وهل هذا الحق حق اجتماعى يوفره المجتمع وما يرجوه له من ازدهار أم هو حق بسيط ولكنه أصلى مرتبط بالحياة نفسها ؟ أم ان الفنان يريد أن يقول ان لا فارق بين الحقين ؟ أنا أحس ــ وهذا حكم نقدى ــ ان الفنان يصطرع فى القصة ككل مع وحش يعتدى على الحياة نفسها فيجعله أقرب الى أن يكون ممثلا للموت الذى يتهدد الروح والفرد على المستوى اللاوجودى (الانشولوجى) من أن يكون ممثلا لقوى التخلف والقهر فى المجتمع التى تهدد الفرد على المستوى الخلقى أو النفسى • وهذا ما يجعل القصة فى نظرى قصة ميتافيزيقية أكثر منها اجتماعية ؟ ولكن أى ميتافيزيقيا لا مجتمع لها ؟ وهل لا تؤدى قوى التخلف والقهر فى المجتمع الى إصابة الحياة بالموت ؟ ان الميل الى المعنى الميتافيزيقى مرتبط بالموضع الاجتماعى والثقافى للفنان ، وعمله هو بالتالى أقرب الى أن يكون ثمرة لهذا الوضع • ولكن هذا يدخلنا فى موضوع آخر من مواضيع أدبنا الحديث ومازال أمامنا هذا اللقاء المخيف المباشر مع الوحش واللقاء فى ذاته معنى أهم من تحديد معنى الرمز •

يتم اللقاء على مسافتين أو على بعدين على وجه أصح • أما البعد الأول فهو بعد التوقع والالتحام ، التربص والوصف المتعالى (الترانسندتالى) للصدام الجسدى • أما البعد الثانى فهو بعد المشاهدة والنظر واستخلاص الرسالة والمعنى • وفى البعد الأول يتأرجح المتربص والمتربص به والوحش والضحية وكأنهما شىء واحد أو شيئان مشتركان فى كون واحد • فأول ما نسمع أن « الجرم الصغير الوديع •• يأتى من يمينه ، من ناحية باب اللوق » • وما أكبر هذا الفارق بين غموض الجرم وشكله ودلالته وبين تحديد اليمين وتحديد باب اللوق ! ان هذا الفارق مثل التيقظ مع اللقاء المخيف لاعلانات الويسكى والسينما الورقية الممزقة الأطراف • هو الذى يصنع فى وقت واحد مستوى الرمز ووطأة الكابوس الواقعى • فهل الجرم الصغير الوديع هو الوحش أم هو الضحية ؟ ان الجرم يصبح

« الجرم الضخم قادما من اليمين » لا يزال ، وهو يمتلىء شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد » • انها قوة وتهديد موجه للفرد البطل يحيل قلقه القديم الى ألم « غير مستبين ولكن موجع وضاغط » يقبض عليه « يخنقه ولكن من غير ان يفلته » فيحيل نقط القلق الأولى الى « نقط حادة في مكان قلبه » • ولكن الجرم لا يزال « يحبث [illegible] ينظر من عل الى الأمام في غير مبالاة » • انه حتمى « سوف يثب الآن كما يمكن أن يثب فى كل آن وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة •• » • ويحدث الالتحام الجسدى الذى يذكر بصراع يعقوب كما قلت فيسقط « الجرم الشاهق على الأسفلت تحت دفعة الوثبة المنقضة عليه ولكن تتشبث به لا تفلته السيقان القوية القصيرة بكلاباتها » •• لقد أصبح القلق وحشا كاملا لا يفلت البطل ، ولكن الى أين ينفذ ؟ « الى مخابىء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التى لا منعة فيها » • والفنان يقول ان المنعة ليست فيها ، ولم يقل انها ليست لها منعة ، أو عليها ما يحميها • انه لا يتحدث عن ضعف تحصينات الذات ولكن عن تعرضها الدائم المكشوف لما سينقض عليها فيجد ان « لا منعة فيها » وينهى الصراع بصورة كلها أفعال استمرار لا يتبدى فيها جسمان بل تصطرع « الأجسام وترتطم أعمدة العظام فى نظام التخبط والتصادم ، فى تصميم الكسر والهضم وضجيج الأحشاء بالهواء الواهب للحياة » • نعم الواهب للحياة التى كل ما يغدو عليها هو وحش وموت •

وينقلنا هذا الى البعد الثانى لجزء اللقاء مع الوحش • وهو بعد المشاهدة والنظر واستخلاص الرسالة والمعنى من الوحش والصراع • وهذا البعد هو الذى سيعطى القصة نفسها التالى وحركاتها القادمة • ان البطل يلتقى وسيلتقى فيما بعد بأفراد يتناول واياهم اللقاء فى كلمات قصيرة وحوار ملغز كأنه طقوس • وأول هذه اللقاءات يتم مع حادث « أو لا حادث » الصراع نفسه وشخصياتها كلها هى شخصيات من المعارف الجدد وليس « القدامى » كما هو

الحال في مطالع القصة • ويتم هذا اللقاء الأول عندما يقترب شاب ـ وهذا مستفاد من الوصف غير مقرر ـ « من الشارع الخلفي عند مبنى وزارة الخارجية القديم » له بعض صفات الوحش فهو « بارز الأسنان •• » ذراعاه « تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر » وساقاه فيهما رشاقة توحي « بمقدرة خفية على القبض والتملك » • ان بقية المعارف الجدد القادمين في القصة سوف يخلصون ـ نسبيا ـ من هذه المشـــابهات ، ولكن هذا الأول هو الذى سيعطى الوحش تعريفه ويبرر وجوده ، فهل هذا لانه يرى ويشاهد أم لانه جزء من الوحش والالتحام ؟ والاجابة على هذا بأنه كلاهما هي التي تفسر دوره على أنه هو الذى يشهد بعدى اللقــاء معا ليكونا « جرمــا » الجزئي الحادث ، بصرف النظر عن واقعية اللقاء ذاته ، وهذا ملحظ دقيق من أسرار عملية الخلق الرمزى •

ولكن الحوار بينهما هو ما يستوقفنا هنــا • فهو ينشأ من الرغبةـ الطبيعية ، وأنت تشارك في منظر التوثب والتربص ، ان تسأل من يلقاك ، أيا كان ، عن السر في عدم المقاومة ، ولماذا هي أمر عام يشترك فيه الناس جميعا • وقد تتساءل : هل يتحدث الفنان ، وهو يثير هذا السؤال ، عن سبب السلبية الاجتماعية أمام الوحش أم هو كالصارخ أمام فجيعة الحياة الطبيعية أمام ما يهددها من قضاء وانه لا ينتظر ثورة أو عملا ايجابيا ولكنه يعبر تعبيرا رمزيا أسطوريا عن الفجيعة ؟

انه على أية حال يتساءل : « لماذا لا يضربونه ؟ » سؤال لهذا الغريب المشاهد المشارك فيأتي الجواب الطقسي « لابد أن يأكل » • ويستمر احتجاج البطل بنغمات اجتماعية واضحة : « لابد أن نأكل كلنا ونعيش » • فبرغم الغريب ، يبدأ الحوار على أن يتجنب السر والزد الكامل ليقول : « الجو حر » ويتمشى معه البطل وكأنما تخــلى عن رسالته في المعرفــة « أول الصيف • الحر جاء مبــكرا » فيعود

الغريب ليقرر حتمية الاصابة واستمرار الرضوخ المفروض لها ويقول مفاجئا : « سنعود بالليل لبيوتنا » • ويـأتى الجواب من البطـل سؤالا يعبر به عن عزمه المتجدد على مواصلة المواجهة والرغبـة فى المعرفة فيسأل : « وأين بيته••؟ » • ولكن الحوار يتوقف بلا سؤال ولا جواب ليسقط ساكنا وقد تجرد من حواريته • ولم يكن هناك ما يدعو فى نظرى لان يصاغ هذا المعنى فى شكل حوار بل أن يكتب كجملة يقولها الغريب فى تبريره للوجود المطلق الضرورى للوحش : « لابد أن يسير المركب • سواء كان النيـل هادئا أم غير هادىء • سيأتى الليل أبطأ من السفينة • هذا كل شىء » • وعلى الرغم من أن هذه الجملة الأخيرة عن قدوم الليل قبل أن تأتى سفينة الخـلاص تحمل شيئا من التهديد لابتعاث الرفض وبذلك قد تصدر عن البطل الا انها من ناحية أخرى تقرير لعدم جدوى الصراع مقدما •

ولقد وقفت فى تتبع هذا الحوار الطقسى القصير لانه شكل من أشكال التعبير قد ابتذلـه بعض قصاصينـا واستسهلوا ممارسته فسقطوا فى غمغمة لا معنى لها ولا سر • ولكن فنان « ساعات الكبرياء » أستاذ فى تناوله حتى فى هذا الجزء الأخير الذى نفيت عنه جواريته ، فالجملتان على الرغم من ذلك موظفتان تماما ، تبتعثان المركب الصغير الذى شاهدناه فى حالة الوجد الصوفى والبطل فى الأوتوبيس ، كما انهما سيتطوران كنغمة فيما يلى من القصة • وعلى الرغم من اننى لم أستفد من معرفتى الشخصية بالفنان فى تحليل القصة أو حتى هذا الجزء الصعب منها ولم اناقشها معه الا انه قال لى عـرضا على التليفون ـ عندما علم أننى أقوم بهذه المحاولة ، ان القصة ظلت فى روحه دون كتابة أكثر من اثنى عشر عاما وانها تحركت غائمة فى نفسه منذ هذه السنوات البعيدة اثر قراءة بيتين لشاعر برتغالى ولم أعرفه ولا أذكره • وأغلب الظن ان هذه الجملة الشعرية التى أوقفت الحوار هى الصدى المباشر لهذين البيتين وان أصبحت لبنة وظيفية فى تيار القصة كلها •

ولا تنتهي الحركة الثالثة للقصة — على أية حال — بالتعريف والتبرير للوحش والصراع ولكنها تنتهي بمحاولة للهرب يقوم بها البطل جاريا ينهج « وهو يصطدم بالناس » وزحمة الشوارع « وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة » وهي شتائم وتوجعات لا تتعلق بما حدث ، لانه في الحقيقة غير مرئي ، ولكنها تعبيرات طبيعية في الشوارع لابد أن يحسها الفنان ويمسك بها وهو في حاله هذا ولابد بمنهجه التعبيري في البناء التشبيهي أن يجعلها أحكاما تخدم معناه • فهل يستطيع أن يحمل مسؤولية المعنى والمعرفة : « هل يستطيع أن يقوم بالمهمة التي قرأها في العينين العاقلتين الدارستين » ؟ انها عيون الوحش الذى كان قادما « بعيون عاقلة وشرسة » وهما في الآن نفسه عيون البطل في أول كلمات القصة • فهل هو يحمل الوحش في داخله كما يحمله كل انسان ، وهل لهذا « هو أيضا لن يقول لأحد أبدا » ؟ ان المعرفة قائمة والقلب « واجف قلق » ولكن ما العمل ؟

علينا نحن — على أية حال — أن نغير من وقع هذا التحليل والا فلن ينتهي • فلقد أصبحت أحس مع القصة كأنني قطار مندفع ثابت السرعة يقطع مسافات طويلة في طريق أصبح كله معروفا متوقعا بالتفصيل ، وأرجو أن يكون بعض من هذا الشعور بالتوقع والمعرفة قد أصبح القارىء مشاركا فيه دون أن يفقد — كما لم افقد — متعة استرواح المناظر وتذوق المعاني وتقبلها • على أن هذه الوقفة تعني شيئا آخر مستمدا من منهج التحليل هو الانتقال من تعقب أدوات الفنان النفيسة وطرائفه في صناعة موضوعه الى محاولة الكشف عن المضمون الانساني للموضوع وموقف الفنان وأحكامه عليه •

سلام الصمت والانكار والجهد المريح :

« كيف وصل الى الغورية » ؟ تبدأ الحركة الرابعة بهذا

التساؤل حتى نستشعر طول الجرى والهرب الذى جعله ينهج بعد « مطاردة أفلت من قبضاتها المفاجئة المتهددة » ماذا يريد هناك ؟ هل هو مجرد الهرب أم هو استسلام الى مكان ، أى مكان ، بعد ان لم تعد ساقاه « تقويان على احتماله والاندفاع به ، جريا • الأرض تشدهما اليه وصدره شق ضيق جارح » • هل يريد السلام فى أرض « الجدعان » ؟ لقد مررنا فى الحركات السابقة بالقلق والتهريب والصراع والمطاردة وهذا الذهن الآن « فى ثورة ثابتة من حرارة ساطعة بعد عودته لصراع لا يعرف أين يحدث ولا كيف يخرج منه ، ولكنه يعرف أنه سيذهب اليه طائعا أو برغمه ، ويخور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه ، لا يسلم بها أبدا ، ولكنه يعرف انها محتومة وضرورية » •

والجملة جميلة أساسية فى فهم مضمون القصة وتحديد الوحش فيه • وليس المهم فيها هو الاعداد للصراع ، فهو حقيقة لن يتم ، فليس له مكان ، واذا كنت مجبرا على الصمت فان هذا الاجبار على الصمت غير محدد الطبيعة ولم يتعرض له الفنان ، بل كاد يترك دائما للفهم انه مفروض من الداخل أو انه نوع من الكبرياء الداخلية للفرد التى تمنعه من الاعتراف بما أرغم عليه • كل هذا يميل ناحية اعتبار الوحش ضغطا اجتماعيا يضطر أمامه الفرد الى الانعزال ويستغرق فيه حتى يصل الى الغربة حتى مع النفس • ولكن الفنان فى جملته السابقة مشغول بالنتائج المتوقعة للصراع أكثر من انشغاله بالصراع نفسه ولذلك يقرر فى فجيعة مهزومة تتباعد عن المعنى الاجتماعى أو ترفعه ـ كما أرى ـ الى المعنى الميتافيزيقى فيقول : « انه ، التغيير ، غير طارىء على الحياة الاجتماعية » وهذا أيضا موقف ميتافيزيقى •

انه اذن ينشد ، فى الحقيقة ، فى الغورية سلام الصمت والانكار والجهد المريح • أما سلام الصمت والجهد المريح فيبعثه الفنان فى

صوره التى تشبه اللوحات الثابتــة والتى قلت انها رغم وجودهــا الواقعى الخارجى فانها فى الحقيقة مشبه به لمعان مضمرة ولمصائر الأبطال عنده • فهو يجلس الى قهوة بلدى « كان الحمام يدخل ويخرج برشاقة بطيئة هادئة من أقفاص الجريد التى تحيط بها أوراق اللبلاب فوق جدارها » يرقب « الظلال المتراوحة » ويتذكر طفولته مع أبريق الشاى الذى لا يشرب منه أحد غيره ويقوم بالجهد البسيط المريح وهو يدير الماء الساخن فى الكوب ليطهره مطمئنا الى أن « هذا هو المفروض أن يفعل » ان « كل شىء يغمره سلام وصمت » ولكنه سلام « فى همود الظهر المبهم » سكون « كل أصوات فيه بعيدة أو مكتومة الصدى مبتورة » أو نــداء غــريب كنداء الديك فى الظهر للفجــر و « وحشة هذا النداء لا تطاق » • فهل النداء كالنداء الغريب فى آخر القصة باسم الفنان أم هو اتهام قاس بخطيئة الصمت والانكار ؟ ان البطل يتشبث ـ على أية حال ـ فى هذه الحركة من القصة بسلامه المصنوع من الصمت والجهد المريح وبصيغة فى آخرها فى صورة ثابتة أخــرى لوظائف الحياة الأساسية وحقوقهــا فى ولد صغير « يقص فى وسط الحارة » والنساء « يثرثرن بصوت غــال مرتــاح مهدود » والطفل قد « استغرقه الجهد المستحوذ الذى تركز فيه كل جسمه •• وجهه محتقن بالدم والجهد المريح » ولكن الحياة كالبيوت، دائما « ترث وتتشقق شقوقا رفيعة متعرجة سوداء » • فاصابات الوحش وآثاره تصيب كل مكان • انه لم يغادر الغورية الا وقد رأى هذه الآثار « واضحة قاطعة الوضوح ، آثار أقدام أربعــة ، مفلطحة •• فى لدونة الرمل •• على بعد خطوتين من عينيه » •

ولكن ماذا عن الانكار ؟ ان فنان « ساعات الكبرياء » يستخدم دائما نغمتين فى حــركات قصته تنتمى كل منهما للأخــرى رغــم تغايرهما •والانكار هو النغمة المقابلة فى هذه الحركة للصمت والجهد المريح ، وتآزرهما معا هو الذى يجعــل السلام تأكيدا للحرص على الحياة وليس مجــرد استسلام مطلق كامل للوحش • ويتــكشف

الانكار في الحوار مع المعارف الجدد كما يتكشف في الحوار الطقسي مع العارفين بالوحش وسره . فالحوار الطقسي يكون دائما مع العارفين وهو غير الحوار العادي . وهو صيغة تمتد جذورها الى الأسرار الدينية التي كان يتلقنها المريد في صيغة سؤال وجواب من العارف المتقدم عليه حتى يصبح فردا من جماعة الواصلين العارفين . واذا كان الحوار الطقسي في صورته الأصلية يؤدي الى كشف الأسرار للمريد ، فان الحوار الطقسي في قصتنا هذه يؤكد جبر الصمت ، كما ان اصرار البطل على الانكار ، يؤكد انه لا يريد أن يستسلم كما استسلم العارفون قبله ، سواء من المعارف القدامى أو المعارف الجدد . في الحركة اذن حواران عاديان مع القهوجي وحوار طقسي واحد مع رجل يملك من الوحش شفتيه « السوداوين تقريبا ، الشهوانيتين ، ولذلك كان ينظر اليه دون ابتسام ، عارفا » أما الحواران مع القهوجي ففيهما لهفة البطل على المشاركة التي لا تتم والحرص الذي لا نتيجة له على تحريك الناس الى المقاومة ، وكلاهما — أي المشاركة والمقاومة — لا يتمان أبدا لان الصراع غير مرئي أو لانه ضروري متقبل . فعندما يحاول البطل أن يستخلص من القهوجي الاعتراف بما حدث في الميدان وكأنما هو نفسه لا يعرف يقول القهوجي : « ماذا يمكن أن تفعل ؟ لابد أن يمر الواحد من الميدان في الصباح أو المساء » . ألا يقربنا هذا من معنى الموت الذي علينا أن نلقاه ما دمنا في الميدان — الحياة كل صباح ومساء ؟ ويعاود القهوجي الترحيب بالبطل الغريب في الغورية فيعاود البطل السؤال عما حدث وكأنما لم يتلق جوابا من قبل ، وبدلا من أن يعلن البطل عن السر ، نراه يحتمي بالانكار الذي يأتي بعد صياح الديك فيذكرنا ببطرس الذي أنكر المسيح قبله .

انه يعاود سؤال القهوجي وكأنما هناك اعتراف لم يقل : « تقول حدث شيء » . فيجيبه القهوجي بصمت السؤال : « أي شيء ؟ » . ويحتمي البطل براحة الانكار والصمت : « أبدا . مجرد

سؤال » • وينتهى الحوار بتقرير الاتفاق على الصمت والانكار : « حصل خير » • ان البطل يحاول أن يتكلم أن يقول ولكنه يريد المعرفة والمشاركة وعندما يتعرف على « العارف » يبدؤه بالحوار الطقسى : « هل حدث شيء ؟ » وينتظر الاجابة « وكأنما حياته نفسها تتوقف على رد الرجل » • ولكن الرجل لا يجيبه • فيبدأ البطل من جديد ليطرح دعوة للمشاركة ويقول للعارف : « اتفضل ، شاى » • ثم يعاود السؤال ويتدرج الحوار حتى يجيبه الرجل الاجابة الرمزية الكاملة : « الانسان دائما مصاب » • ولكن البطل يرد معترضا وكأنما يمكن الاعتراض : « لا •• لا أبدا ••» • فهل هذا مجرد ثورة ورفض للقدرية أم هو اجابة فى فجيعة منهزمة ؟ قد لا نستطيع ـ كما قلت ـ رغم كل هذا التحليل للقصة أن نجيب اجابة قاطعة على هذا السؤال ، ولكنى أجد نفسى دائما أقرب الى فهم المعنى الأخير •

رؤية الفساد الأخير :

كم مرة قرأت هذه الحركة القادمة فى القصة !! انها تفجؤنا سريعة كثيفة غامضة مثقلة بالمعنى وكأنها القمة الوعرة للعمل • واذا كانت الحركة الثالثة التى يحدث فيها الصراع على المستوى الرمزى هى أصعب أجزاء العمل وأكثرها خطورة على المتلقى المفسر ، فان هذا الجزء الجديد له صعوبات من نوع آخر ، فهو لا يتعلق بحدث ولا يصف منظرا واحدا ولا تتحدد فيه أشخاص ومع ذلك يتفق بالأحداث والمناظر والأشخاص بل والحوار • انها كتلة واحدة من التعبير الخالص عن التجربة ، والمناظر والأحداث المطلقة التى كلها أحكام غير متحيزة فى زمان أو مكان جزئيين • ولهذا فقد تكون أفضل مواضع دراسة خصائص الجملة عند الفنان لانها تظهر خالصة فى فيزيتها المجردة ، بما فى ذلك طرائقه فى استعمالات العامية مفردات وتعبيرات • ولكنى أفضل أن أرجىء مثل هذه الدراسة لمقال آخر

حتى نستكمل محاولة تحليل القصة وكسر كتلة هذا الجزء المتماسك الصلب منها ·

وقد يكون أيسر طريق الاقتراب منها هو وصفها من الخارج من حيث انها — كما قلت — كتلة متماسكة · فهى تبدأ بصرخة ملهوفة متسائلة : « أين يجده ؟ كيف يمكن أن يجـده ؟ » · ويلحق ذلك سبع عشرة فترة تتـكون كل منها من جملة أو أكثر تبـدأ جميعها بكلمات : « قال له » وكلها تتعرض لوصف الوحش وخصائصه كأنما تحاول أن توجده بأنواع من الكشف المتوالى المتدفق وكأنها فقرات فى نص دينى · وفى نهاية الفقرات حوار من فقرتين يبدآن أيضا ب « قال له » ، وكأنهما يؤمنان على كل ما قيل : « قال له انه يعرف ، أنه يعرف ·· قال له صحيح » · وتختم الفقرات كلها بخاتمة أشبه بالكودا الموسيقية تصف « العناق الأخير » بين البطل والوحش وأول لحظات الفساد الأخير « وكأنما هى رؤية لنهاية العالم » التى يظلم فيها كل شىء · والقطعة فى جملتها أشبه بالطقس الدينى المتكامل أو القداس الرهيب ·

فلنشترك اذن من الداخل · ولنبدأ بالتساؤل : من الذى قال ؟ ومن هو الذى قال له ؟ وهل هناك متكلمان أم هو شخص واحد تصدر عنه الفقرات المتتالية ؟ ان الفقرتين الأخيرتين فيهما على وجه التأكيد دليل على وجود متحدثين أحدهما يقول : « انه يعرف ، انه يعرف » والآخـر يقـول : « صحـيح » · ان صيغـة الحوار الطقسى التى استخدمتها القصة قبل ذلك تقطع بأن أحدهما يمثل العارف بأسرار الوحش الذى ظهر مرتين من قبل وان الآخر هو البطل الذى يسأل ويريد أن يعـرف ، حتى اذا عرف قال انـه « صحيح » · وترتيب الأدوار على هذا النحو هو الغالب وان كان غير مقطوع به · ولقـد حاولت من خصائص الفقرات فيما قبل الفقرتين الأخيرتين ان أتبين نسبتهما للبطـل أو للعـارف على أساس التحليل الداخـلى للنص

وارتباطاته بالتعابير السابقة ، بحيث يمكن تصور القطعة كلها على انها حوار طقسي واحد ، ولكن هذا لم يستقم لى وان كان من اليسير نسبة بعض الفقرات على وجه القطع (مثل ٦ و ٧ و ١٥ و ١٦) اذا رقمناها المعارف حيث تستمد الخصائص الواردة عن الوحش فى هذه الفقرات من التمتع بعناق الوحش أو من صور مرتبطة بالمركب والسفينة التى استخدمها العارف من قبل • اننى أقرب على أية حال الى اعتبار الفقرات السبع عشرة الأولى لمتحدث واحد هو العارف أو البطل وقد تقمصه بمعنى أنه أصبح هو الآخر أيضا عارفا • وهناك ملحظ أخير قبل أن نفرغ من هذا الاشكال قد يساعد على تأكيد هذا الرأى • ففى الحركة التالية من القصة أى الحركة السادسة نجد الكاتب يختتمها بفقرتين تبدآن بكلمات « قال له •• » • فى الأولى كلمات قالها العارف فى الميدان ، وفى الثانية كلمات يمكن أن يقولها العارف فى القهوة لانها مستخلصة من الحوار الذى دار هناك •

ولكن ليس هذا الاشكال الشكلى — على أية حال — أهم من خصائص الوحش التى تكشف عنها الفقرات • ان الفنان يفصح فى هذه الفقرات بكل ما يستطيع من وضوح — أو ما يريد من وضوح — عن معنى الرمز الذى أقام عليه قصته • وأنا ممن يقدمون فى الفن الاستطاعة على الارادة ، فلا يعنينى ما كان يقصده الفنان ، بقدر ما يعنينى ما يستخلص — فى حدود الامكان — مما حققه ، واذا كان العمل الفنى يبقى بعد تحليل تجربة متعددة المعانى متجددة المذاق مع التلقى ، فان لى أن أتابع من الخصائص ما يؤكد تجربتى الخاصة من التذوق واتجاهى الى اعتبار الوحش معنى ميتافيزيقيا يهدد الحياة ويهدها دون أن تجد أمامها مهربا ، بل ان مجرد توقعه اذا أصاب النفس حتى قبل لقائه فانه يضربها بميسم الغربة ويفرض عليها لعنة من عدم التوصل رغم كل ما تقدمه من حب أو ما يجيش فيها من توفز للمعرفة والمجد الحسى •

ان الوحش فى الفقرات الأربع الأولى « فى كل مكان » ، لا يختار حيا دون آخر من أحياء القاهرة . فهو غير طبقى لانه موجود : « تحت المتحف الزراعى .. فى أغوار الغورية .. عند السفارات .. والزمالك .. قرب قرافة الامام » بل وفى حديقة الحيوان « مقفلا عليه داخل القفص وخارجه أيضا » . وهو مع الناس جميعا « رجله على رجلهم » بل ان « أنفاسه فى صدورهم الشرسة ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة » . وفى الفقرات الثلاث التالية : « يدخل الشارع - كل شارع - باقدام واثقة تعرف انها تملك الشارع ، كل شارع » . ومن هنا جاء عنوان القصة . وهو مع هذه الثقة يحتضن الناس بعيونه وله رائحة حريقة زاعقة هى « رائحة الحيوان الوحشى » و « ولكنك ، تعرف ، تحبها .. وتجد فيها طعما تريده » فما أقربه للموت عندما يجىء !

وتقدم الفقرات الأربع التالية مناظر لحوادث افتراسه وما يتركه من اشلاء أو دم أسود أو قطع صغيرة ملوثة من ملابس الأطفال . والناس فى كل حال يغطون على آثاره « ولا تسرع ولا تجرى ولا شىء » سلبية مطلقة من الناس كلها لا تقوم الا أمام ما لا راد له .

ولكن الاشكال فى الرمز فى الفن هو فى أن له شكلا . والوحش فى صورة الحيوان الخرافي - حتى وإن كان غير مرئى - له زئير وزمجرة يضرب ضربة واحدة فيجعل الرأس المبتور يسقط صامتا . ولانه غير مرئى فان الفنان يستخدم قدرته التشبيهية الخاصة ليجعل كل ما يحدث فى الشارع وكأنما هو من آثار اللقاء معه . فسقوط الانسان يحدث فرقعة حقيقية ولا يدرى أحد هل جاءت من العظام المتهشمة « أم من فرقعة غازات العادم .. أو من خبط الأبواب » . ان كل الأحداث فى الشوارع هى مشبهات لأفعاله حتى طقس الأطفال المتوارث وهم يرمون الأسنان المنزوعة فى عين الشمس .

وعندما نصل الفقرات الى هذا الحد من التوحيد بين الداخل

والخارج وبين المشبه والمشبه به ، بين الوحش والضحية ، نقترب من التوحيد بين الوحش والبطل نفسه ، وترتفع زمجرة « توقف كل شيء فى دائرة ضيقة ، لحظة من زمن وتخرس كل شيء » • ودون نظر أو كلام يعيش الناس « فى لحظة الصمت والانكار » ويستحيل الوحش الى « مركب بطىء رشيق ضخم الجرم على النيل تتموج أشرعة جسمه بقوة ومعرفة •• » ويستيقظ رب البيت أى بيت « ويظن انه يحلم » فقد جاءت السفينة ولكن بعد أن هبط الليل •

وتأتى الرؤية الأخيرة والبطل يجيش فى كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير •• « وتطبق السيقان الشعراء فى جنانها المصمم الخام ، قاسية تؤدى واجبا ، لذلك قسوتها ضرورية » نعم ضرورية • ولابد بعد ذلك ان « تنسكب إلى الخارج عصاراته (الجسم) الطازجة فى أول لحظات الفساد الأخيرة ويرتفع الكرير الأجش يملأ العالى وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تبسد كل شيء للمرة الأخيرة ، فى حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهشمة النهائيه التى يظلم فيها كل شيء •• » وتنتهى نهاية العالم ونهاية الصراع ولا يعود نور ولا حب ولا صلة ولا ناس •

حب غير مفهوم وغير مطلوب :

ولكن لماذا لا تنتهى القصة ؟ لقد كانت نهاية العالم رؤية وتنبؤا وليس حادثة أو واقعة منتهية النتائج • واذا كان الوحش قد أصبح حقيقة مقررة تناولتها النفس بالافصاح التام وعاشت تجربته كاملة فان هذا الافصاح والمعايشة لا يكسران الصمت والانكار فى العالم ولا يحطمان القلق والغربة فى الداخل • أن الموت الميتافيزيقى الذى يهدد العالم والفرد هو انعكاس للضغط الاجتماعى والارغام الذى يعانيه الفرد فى المجتمع ، والفنان فى هذه الأجزاء الأخيرة من القصة يقدم المركب الأسيان للوجهين القاسيين للوحش : الوجه الميتافيزيقى والوجه الاجتماعى •

فالناس كلها بعد الرؤية أصبحت « مواكب تمر به .. في وحدتهم واندماجهم معا ، ماذا يفعلون ؟ » . ان الناس جميعا غافلون عما يهدد الحياة والمجتمع وعن الوحش الذى يترصدهم جميعا . ومن غفلتهم أو من صمتهم أو انكارهم وعدم مقاومتهم استحالت وجوههم جميعا الى وجوه « منحوتة » .. عرتها الوحشة والقسوة .. وانها كانت التحقق والاحباط معا ، كلها لا تفى بشىء ..

ان أبطال الكاتب جميعا فى قصص « ساعات الكبرياء » ينتهون الى لحظة هذا الوجه المنحوت الذى فقد القدرة على الخلاص بعد أن هبط الليل ومرت السفينة الوحش التى كانت تحمل مع الموت والافتراس والاحباط امكانيات الخلاص والتفتح والخلود . وقد نستطيع أن نتابع هذه النهاية الموحدة فى القصص جميعا اذا عدنا لمناقشة « الساعات » كمجموعة متكاملة ، ولكننا نجد هنا صورة مجردة ورمزية معا لهذه النهاية مصاغة فى الخطبة التى يوجهها الكاتب للناس بعد نزوله من قمة الرؤية . غير أن خطابه الذى يوجهه مباشرة « لكم » تمر به المواكب « أرواح محبوسة فى حفر قبورها » ولا تستطيع الرؤية أو الخطاب أن تجعل الناس يتوقفون أو يقاومون، ويبقى السؤال : « ماذا يفعلون ؟ الى أين يذهبون ؟ » . انهم جميعا « أرواح تنادى بصوت مكتوم تنويعات شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم الذى ينحت ويسقط منه فتات الحجر لتترك مسوخ النقوش المعراة ، طبقة بعد طبقة » . ولست أرى أوضح من هذه السطور لصياغة معنى التنويعات التى قدمها الفنان فى « الساعات » على « أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صخر الجسم » . فهو دائما فى قصصه يبدأ منه ويعتمد عليه ويراه دائما وهو يتعرى مع ضغط الحياة والمجتمع حتى يصبح مسخا ونقوشا معراة .

وما أقسى الفجيعة عندما يذهب الناس الى لا مذهب ، وعندما

يعملون ما ليس عملا ، فيقف البطل وحيدا لينظر في نفسه ، مطلا على كل ما كان يريد أن يحقق وما كان يستطيع أن يقدم لهم ، واذا به يخرج بالحقيقةالموجعة التي ستظل تهدد كل فنان . « الوحش الذى يسكن قاع قلبى ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب، ثم تتهدم الأمواج .. » .

لقد سقط الرمز أخيرا من قسوة الفجيعة وانكشفت صدفة الفن عن لؤلؤة مجهولة غير معروفة لا نفع فيها لأحد ، وأخذ الوحش شكله الثالث والأخير بعد معناه الميتافيزيقى والاجتماعى ، ليصبح دلالة لازمة فى الداخل ، كانت قلقا لا تنحل حوافه فى أول القصة ، ثم أصبحت صراعا مع الوحش من أجل الناس ، وعادت غربة مقضيا بها لحب غير مفهوم وغير مطلوب . واذا كان الوحش قد استقر فى قاع النفس فقد استقرت معه تلك الرغبة المستمرة التى لن تتحقق فى الخلاص فيسأل : « وأين سفينتى ؟ » . ويجيئه الجواب الطقسى الذى لم يتعلمه : « كلنا لابد أن نمر فى الميدان » .

نـور الوعى الداخـلى الخافت :

وعندما مر فى الميدان فى ساعة اللقاء الأول مع الوحش كانت « ظلال الناس القاتمة فى الشمس .. يحسها قامات سوداء رفيعة رثة هزيلة مجوفة » أما الآن وقد عبر الميـدان بعد اللقاء والصراع والرؤية والخطاب الأخير وقد بدأ النهـار ينكسر ورحلة الشوارع تقارب نهايتها ، الآن وقد أتم الرمز وتبدد فى المعنى المجرد ، لم تعد الا الرجعة للفن الوصفى الحسى وللبيت وللوعى الداخلى بالذات . ومع هذه الرجعة « يحس الناس على الرصيف غربـاء ، واخوة يأمن لهم ، ظلالا قاتمة فى نور وعيه الداخلى الخافت .. » انهم غربـاء واخوة ، وهذا الشعور بشمول المحبة التى تشمل الغرباء وتجعـل الناس جميعا اخوة هو الخلاصة الروحية لتجربة القصة ، وهو دعوة الفنـان الحقيقيـة .

ان مرارة تجربة الصراع مع الوحش ، تلك التجربة المستمرة الدائمة والحتمية الضرورية ، يراجعها الفنان كلها فى الحركة الأخيرة للقصة ويتناولها بنفس طريقته المعتادة فيعرض لوحته الثابتة الأخيرة تجمل طابعه التعبيرى ومنهجه التشبيهى وتتركز فيها المعانى الميتافيزيقية والاجتماعية والنفسية للوحش • لقد انحدر البطل من باب الحديد حيث ألقى خطبته وسار وحيدا لم يفرغ من شئ ولم يعد العدة « ليوم مشهود » ووجد نفسه « عبر الشارع أمام سينما مترو •• فى المغرب البرونزى الصدىء القاتم الخضرة • وكانت قدماه من التعب والغياب ، تختطان به طريقا غير مستقيم •• فهو على كل ما حمل من مهمة ورسالة لم يستطع أن يعد طرفا مستقيما » واذا به يشبه الحال الأخير لنفسه ولمعناه بواقع موجود قائم : « كانت تجلس على الأرض ترضع ابنها ، صعيدية ، سوداء ، مجعدة وجافة تنحنى عليه باهتمام ، وفى حركة حنان لا يطاق ، لا يبرر شيئا ولا يبرره شىء » • انها تحاول أن تصنع الحياة وقد افترسها الوحش ، والحياة التى تصنع على حجرها » مضغة تبدو لا أهمية لها ، سمكة على حافة •• « كالأوتوبيس عجلاته تتوقف على حرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان » ومن قبله ذلك « الحيوان الذى يريد ان يتشبث بالحافة ولا يقع » فى أوائل القصة •

لقد بقر انسانيتها الوضع الاجتماعى وكأنها واحد من الصناديق « الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة فى أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار •• » أو كقفص الجريد الذى تبيع عليه جرائدها وكتبها وقد « انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه » • ان الحياة والحيوانية فيها وهى تمارس قمتها فى الأمومة قد جفت وأصبحت كثديها على ما فيه من عصارة أصبح « مقدد الجلد » ••« مشققا بالغضون الذابلة » وقد أصابها هذا النحات الذى يصيب أصل الجسم « من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه ، من جفاف انتزع العطاء من بئر ضحلة » ويأس الاقتراب والابتعاد بلا نهاية ،•« من الاشباع الذى

يعد وينكث وعيده ٠٠» من طبيعة الحياة نفسهاومن أثر الضغط الاجتماعى على هذه الحياة ٠

واذا كان حنانها كحنان الفنان « لا يطاق » ، فانه لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء ، بل هو محاولة للعطاء الخالص معزولة يقف أمامها البطل يريد أن يتواصل معها ٠ ولكنه يتبين ان الوحش قد افترس ما يمكن أن ينشأ بينهما من علاقة ، فمن السخف أن يناديها بما يريد وأن يقول لها « سيدتى ، حبى ، أمى » ٠ بل ان دموعه نفسها لا تريد أن تنكسب رخيصة أمام تلك النتيجة الفاجعة التى حققها الوحش : « يا أمى لا شيأن لك بى ، لا شيء يصل بيننا » ٠ وترجع اليه كلمات العارف الأول بالوحش فى الميدان : قال له الوحش سفينة تبحر بنا فى مياه مجهولة ٠ وعندما يضيف له « والعالم وحش ، والألم » ، لا يستطيع الا أن يسجل رفضه ومقاومته بقوله : « ولا هذا أيضا لا » كما فعل فى الحوار الطقسى فى الغورية ردا على « الانسان دائما مصاب » فقال : « لا ٠٠ لا ٠٠ أبدا » ٠

ولكن النفى مهما كان مؤكدا لا يكفى لكسب المعركة ، بل ان التوقف عند النفى يحيل البطل نفسه الى « وحش مهدود يمضى دون ارادة ، دون مخالب ، دون عقبة ، دون وصول بلا انتهاء » يجعله يسير « فى آخر نور المساء فى طريقه الخاوى » وقد كاد الصيف يصبح خريفا « فى غيبة لا يوجد فيها الا جسمه » ونور وعيه الداخلى الخافت ٠٠

انه مثقل بتجربته ، قد جرب الصراع وجرب الرمز وجرب الفن ولم يعد يملك للنساس على غربتهم الا الاخوة والأمن ، فلماذا لا يغمض عينيه ويسير « فى حلمه » ٠ واذا « بنافورة تنبثق بين جدران كثيفة » هى جدران روحه الغريبة « ويرتطم ماؤها بالحجر الصلب القديم » الذى كان قلقا فى الصدر واستحال غربة قاسية تجعله لا يتبين حتى اسمه : « أدوار ٠٠ أدوار » ويتساءل : « ما صلته به والصوت غريب ؟ » ٠

فهل النداء نداء من الوحش يطارده حتى النهاية ، أم هو من ناس « أخوة وان كانوا غرباء ، يريدون أن يستوقفوا الفنان ليقولوا له : لا ٠٠ لا ٠٠ أبدا ٠٠ حبك مفهوم ومطلوب » ؟

ان الفنان ٠٠ « دون أن يفتح عينه ، كان يبدو له أن البيت بعيد » ٠ ان الرحلة كانت حقا طويلة ، ولكن الفنان الكبير له بيت قريب قريب فى قلوب قرائــه ٠

بدر الديب

القاهرة

تحت الجـــامع

ــ أمه هاتى قرش ..

ــ يـوه جاك قرش لما يقرشـك ، هـو انت يا بت ماتشبعيش قروش ؟ طب سدى سد . هو آنا قاعدة لك على بنك يا بت ، واللا على حنفية قروش ؟ قال ايه قال قرش .. صـباحى وليلاتى على الله قرش . هـو انت يابت ماتستكفيش نيلة قروش ؟ انت مش لسه واخده امبارح من أبوك ، وقرش اصـطبحت بيـه عـلى وش الصبح ؟

والبنت ثبتت عينيها بوجه أمها ، يربطهما به سحر الكلمات القاسى . الكلمات اللاذعة تنثال عليهـا ، لن تكف أبدا ، تتقلب وتئز كأنما تخرج عن موقد الجـاز وهو يفح فى عتمة العصر التى توشك أن تطمس معالم الغرفة .

أمها تربعت أمام النار ، تقلب الطاسـة بالملعقـة الكبيرة الصـدئة ، ورائحة الباذنجان السـخن سـطعت فى الهـــواء المحبوس . التفتت اليهـا أمهـــا لفتـة

خاطفة تكويها بنظرة من العينين اللامعتين بألق أسود صلب • وهج النار ينعكس على الوجه الأسمر المتهضم ، النضر مع ذلك بسخونة متضرجة • والمدورة تحبك الرأس وتلف الشعر الأثيث •

انحنت البنت على عروستها النائمة وسبط كومة مهوشة من الخرق ، وأزاحت العلب الصفيح والنفايات اللامعة على أرض الشرفة الضيقة ، تحت الواح الخشب المائلة على الحارة •

ورفعت عروستها اليها ، خرقة آخرى ملفوفة محزومة بشريط ناصل ، تتدلدل منها ساقان خرعتان لا قوام لهما ، وذراعان احداهما أطول من الأخرى وأسندت بيدها الرأس المحبوك بمزقة من مدورة أمها ، لم يبق فيها الا بضعة أقراص دقيقة متلألئة من التوتر الأزرق • ما أجملها وما أرقها ، تبتسم لها من عينين لا يعرف أحد غيرهما جمال نظرتها ، وابتسامتها حلوة، وجسمها اللدن الهفهاف طيع في يديها بحاجة الى الحنان الذى يدر به صدرها ويغرقه •

ضمتها وابتسمت لها ابتسامة حميمة ، واستدارت بها الى جنب فلا يعود في العالم سواهما ، والحنو والرقة • تطويها الى صدرها الضيق الناحل ، وتربت شعرها الكثيف المسرح ، أصابعها ، هى وحدها ، تعرف مسته الناعمة • ابتعد أزيز النار ونشيش الكلمات والزيت المغلي • ولم يبق الا الشرفة المزحومة •

وهى تلتصق بلحاف مطوى قديم نبتت عليه نتف ملبدة من القطن المصفر ، واللحاف يرتفع كأنه سد طرى يحلو الاختفاء وراءه ·

لم تكد تنعم بكن مخبئها ، وتنحنى على عروستها حتى وخزتها فجأة شظية ناتئة من السبت المدور ، تطل منه رؤوس البصل والثوم الناشف التى ضربتها الشمس · وندت عنها صرخة ، مكتومة كأنها ذنب · وخطفت يدها مكهربة بالألم فاصطدمت بأعناق زجاجات الخزين المسدودة بالخرق ، تكثفت فى قاعها صبابات من ماء الزهر والخل والسبرتو · وهى تمص أصبعها ، كأن فى فمها حسا بالدم الذى انبثق منه يومها عندما كشطته زجاجة مكسورة العنق ، لولا ان حجزته أمها عندما ربطت اصبعها بخرقة صوف ·

ونور العصر تريقه عليها سماء ضيقة جافة محصورة بين سطوح البيوت ومئذنة الجامع الضخم العتيق · والحر آخذ بالنفس ·

ـ ماجده ، يابت يا ماجده يا مدهولة على عينك ، انت ما لك يا بت ؟ بانده عليك بقى لى ساعة وانت ما ترديش يابت ؟ هو انت اتلجمت ، اتلبشت خلاص ؟ أعمل ايه فى البت دى يا خواتى ؟ قومى على حيلك يا مضروبة فى جنبك هاتى لى غطا الحلة ·

هذه الولولة تدق قلب البنت ، تفاجئه بضوء ساطع

من الرعب ، فتنهض مدفوعة كأنما برغمها انتزعتها الصرخات وبطحتها على أرض صلبة ، وعيناها معلقتان بالوجه الندى بعرق السخونة الخفيف، والعينين المتألقتين بسعار حاد .

ـ اسم الله عليك وعلى اخوك ، طب قومى ياختى يا حبيبتى ياالله ، مش تفتحى يا ضناى !

بادرت الكلمات الحانية تلحقها كأنما لتقيلها من عثرتها . كانت ذراعاها تضربان الهواء ، خانتها ساقاها اللدنتان ، فى لهفتها على الجرى الى أمها ، فاندفعت عتبة الشرفة تخبطها وتصدها .

لانت العينان الصخريتان وتسايل فيهما حنو تكسرت من فوقه القشرة الجامدة . وسال الدفء فى قلب البنت كماء ساخن يحمل أمامه السدود . وقامت تجرى فى أمان رحيب وهى تدعك جنبها . ولم تبك .

وعندما عادت الى جنب اللحاف أسندت ظهرها الى نعومته الدسمة . هذا الجانب العالى منه يأويها الآن ، دون لهفة ودون خوف . وقد عاد الى الغرفة صمت خلا من الطنين ، وهمدت الرائحة الكثيفة .

أخذت عروستها على مهل فى حضنها . خداهما الآن متلامسان . وهما تنظران معا الى دكان العجلاتى المفتوح جنب باب الجامع الكبير .

تغيبان معا فى نشوة من تأمل العجلات السوداء مرصوصة حتى السقف ، وكأن أيديهما تتحسس معا نعومة الدراجات المقلوبة المعلقة على الجدار ، فى قاع الدكان ، مصقولة فضية تومض فى العتمة • تنبثق الأسلاك من بؤرتها ، فى أشعة هفهافة ، مندفعة ومشدودة ، محبوسة فى توتر دائرى لا تشبع منه العين • وفى الخارج جدران الجامع الضخمة قائمة بأحجارها الكبيرة العتيقة ، انبرت القشرة عن مربعات الحجر هنا وهناك وتعرى لحمها الحليبى الأبيض منورا فى السواد الذى تركته أجيال طويلة من التراب ومس الأيادى •

وهى تناغى العروسة ، فى كلماتها نبرة من صوت أمها ــ أمها الأخرى الحلوة :

ــ عايزه قرش يا حبيبتى ؟ خدى يا ضناى ، خدى آدى قرش • حتشترى بى ايه ؟ كراملة •• وحمص •• ومصاصة •• وبسكوت كمان ، تقرقشيه لوحدك وماتديش منه لحد •• انت عايزه تنزلى فى الحارة دلوقتى ؟ طيب انزلى ياختى •• خلى بالك من السكة •• مسافة السكة وتيجى على طول •

فى همس حميم ، والعروسة تصغى وتبتسم ، وجهها المصنوع من الخرق منور وضاح ، وتسلم نفسها للحضن الرقيق •

ــ أمه عايزه قرش ، أمه هاتى •• هاتى قرش ••

فى ضراعة وخفوت وتردد ، ولكن بثقة أيضـا ، فى دل من يعـرف ان اللحظـة حانت والقطـاف دنا ، وفى مكر ٠

ــ يوه هو انت يابت اللى عليك اسمه قرش ، خلاص علقت ٠٠ طيب ياقرشانه انت ، طيب ٠ روحى ياللا ٠٠ قدامك على رخامة البوريه فيه قرش آهه تحت المفرش ٠ أهه يابت ٠ خديه ياختى وانجرى على تحت امال ٠٠ ما أنا عارفه ٠ بس اوعى تعـوقى ٠٠ خـلى بالك من السكة ٠

عيناها تتبعان البنت ، ثم تنهض ، خفيفة ، وتستند بيدها الى الأرض ، ومس الحصيرة الخشنة المشبكة تحت أصابعها يثب الى راحة الكف ويصطدم بها يدعم وقفتها اذ تستطيل على بنيان قدها الطويل ، على عمودى ساقيها العضلتين يتسدل عليهما ، من هيـكل جسـمها الوثيق الملفوف ، ثوب صيفى من « زمش العين » يتخايل تحته قميص فسدقى خشن النسج ولكن محبوك ، قصير ، الى سمانتى الفخذين ٠

وهى ترفع الحلة المغطاة بيد ، والموقد المطفأ فى اليد الأخرى مازالت بطنه ساخنة بعد ، وعدته السوداء مندداة بالجاز اللاذع الرائحة ، وتوازن بينهما فى سهولة جاءت عن مرانة طويلة ٠ عيناها فى المحجرين الأسمرين الداكنين تتبعان البنت تتدأدأ فى مشيتها وتهتز عـلى

عظامها الرقيقة اذ تجرى الى باب الغـرفة ، ومنها الى الطرقة ، ثم الى السلم الضيق المعتم المكتوم .

في قلبها موجة خفيفة الاهتزاز من الحنان نحو هذه الحتة الصغيرة من أحشائها . هذه الجزازة الحية منها وحدها الآن ، مستقلة بحياتها الخاصة وان كانت من كبدها ورحمها . ثم هي صورة غريبة أخرى من أبيها . فولة وانقسمت فلقتين . الفم الواسع المدرب الحساس ، والسنتان الناتئتان . . .

شفتاها تعرفان ضغط هاتين السنتين الناتئتين .

وابتسامة ترف حول ركني فمها . شفتاها تتلامسان، كأنما هي تستـــطعم الدم الذى انبثق منهما مرة ، في الليل ، قبل أن تولد ماجده . الليالى القديمة العاصفة المتقلبة بالهوس الساطع فى الظلام ، حتى يهمد بهما عباب الأمواج المتراكبة المليئة ، ويصلان الى المرسى .

جاءتها من الباب المفتوح ضجة الجيران فى الطرقة ، والزعيق ، والنداءات ، والدعوات على الأولاد مقصوفى الرقبة هو انت مش حتهمد يا واد بقى ؟ هو انت معجون بمية العفاريت . . الهى ياخدنى ويريحنى منك يا محمد يابن نفيسة .

وحنفيات مفتـــوحة وعمـــود كثيف من الماء ينصب ويصطدم بجـــدار ســـطل من الصفيح ، وينثال المـــاء ويتسرب من على جوانبه ، والخيشة تدفع الســـيل عـــلى

يلاط الطرقة الى السلم · هذه نفيسة أم محمد تكد في الكنس والمسح والطبيخ والتسوية والغسيل طول النهار، وسلفتها تجيبة متربعة جنب الراديو أمام الشباك طول النهار تسمع الأغانى المائعة ـ المقروصة فى جنبها ـ وتلعب بعقول الشبان في الحارة من وراء ظهر زوجها· عقربة ومستخبية ياخواتى · وبتخرب عـلى الناس من تحت لتحت ·

كان يقرض قلبها دائما شك ، لا يستند الى أدنى أساس ، في ان مقصوفة الرقبـة تلعب لزوجها أيضـا بالعين والحاجب ، ولا تراعى حق الجيرة والعشرة · هو حدس لا قوام له في الحقيقة التى تظهر للعيون ، لكنـه حدس لم يخنها قط ·

وأم محمد تهتف فجأة مرتاعة :

ـ يـوه بسم الله الرحمن الـرحيم حاسـبى يابت يا مجدة لتتزحلقى ·

وباب السلم يصطفق ·

تدوى الخبطة فيرتج لها قلبها، وفى طرف من أطراف هذا القلب المرضوض خشية من آن تستيقظ ماجـدة مفذعة من حلاوة نومها فى أول الصبح · الرجل يتركلها دنياها ، وحدها مع البنت ، ويمضى متوترا بالغضب · والسترة الجلدية الداكنة تلف الظهر الوطيـد وتحيط بالكوفية المعلقة حول العنق الركين ·· أرض الطـرقة

تهتز تحت الخطوات القوية بالسخط والشباب والاستهتار · وكل يوم يصبح على هذا الحال ، ولا يعود الا فى آخر الليل ، عيناه محمرتان ، والرائحة نفسها ليلة بعد ليلة ، تتشبث بملابسه بل بعضلات صدره وذراعيه أيضا ، وتحت الابطين وفى خفايا أركان الجسم · رائحة فيها حلاوة خافتة تكاد تنقلب لها المعدة تفوح من الفم بشفتيه الساخرتين المنفرجتين دائما عن الأسنان الحادة · واذ يعود فى النهاية يقر لها قلبها مع ذلك ويرتاح من خوفه ويضطرب أيضا بالغيظ والحنق·

— هى الفلوس اللى بتروح على المدعوق ده مش فلوس ؟ طب أعمل ايه بس لو مسكوه ؟ ابقى ساعتها أروح فين وآجى منين ياخواتى ؟ ياختى ·· الشر بره وبعيد · والعيله دى ابقى أعمل فيها ايه ؟ يعنى آخرتها يسيبها فى أرابيزى يبقى يا فرحتى يا هناى ·· !

تسرب ما ادخرته من أيام الشغل وشقاء الشغل · سحب منها القرشين بخلابة كلامه وسحر أصابعه · ومازال يطلب منها المزيد · كأنما لا تكفيها وزيادة يالوعة البيت التى لا تشبع ، ومصاريف الطفح الأكل التى تقصم الظهر · وهو كل يوم سبت لا يكاد يرمى لها ما يلم أطراف البيت على بعضها البعض · وهاتى هاتى يابت الكلب ·· حتى الصيغة باعها من زمان ، وحججه لا تنتهى ، وضيعها على المحروق الذى لا ينتهى ظمؤه اليه ·

ومازال فى ظنــه انها تخبىء عنه بقية ، ومازال يداجيها ويناغيها مرة ويعنف بهـــا ويعصـــف مرة . يطاوعهــا ويلاينهــا أو يتنكر لها ويسب الدين والملة ، يجهد أن يستقطر منها الصبابة الأخيرة بالمحايلة أو الخطف على السواء . كانت قد أفرغت ما لديها بين يديه منذ أمد طويل ، ولكنها تتركه عن عمـــد يستشف من نبرة صوتها أحيانا - أو من كلمة نافرة كأنها أفلتت عفوا ، انها مازالت تكتنز شيئا فى حرز حزين ، وان كانت لن تسلمه كنزها . فلو تيقن انها صفر اليدين حقا ..

هل هى خدعة تلك التى تقيها هى وبنتها، وتحمى بيتها ؟ أليس لديها فى الحقيقة كنز آخر ، وهى تحجبه وتحرس بابه ؟

لــكن يديه الخشنتين وأصـــابعه القـــوية الدقيقة المفاصل تعرف أسرار ما تعالجه فى أحشـــاء السيارات طيلة النهار ، تجوس فيهـــا وتجسها وتظل تتحسس جوانبها ومساراتها ومساكنها ، وتلائم بين أطرافهـــا وتدق على جدرانها وتلحم المتفرق من شعثها وحديدها ، كأنها تعمل لها « عملا » أو تتلو عليها رقية حتى تهتز بالحياة وينبثق الطنين فى المعـــدن المـــوات وينبعث له هرير وهدير دفىء منتظم الايقاع .. يداه لن تطـــولا كنزه الآخر ، يداه مضمومتان عمياوان . والكنز تحت يديه . يداه لا تعرفان بابا اليه .

– وهو فيه عينين تشوف غير الزفت اللى بيحرق فى

قلبه عمال على بطال ليلاتى على الله ، آهى وكسة من كل ناحية وخلاص ٠

لكن ثمة جانبا رخيا موطأ الجناح فى دخيلة نفسها، فيه رضى وأمن ونعمة ٠ هنالك فى ركن منها ، صحيح ، توق غامض وأمنية خفية ، لو خلف الله عليها بولد ، وخيبة صغيرة لأن ما جاءت به بطنها بنت مكسورة الجناح ٠ لكنها بنتها وحبيبتها وأغلى من الدنيا عليها ٠ ولسانها مع ذلك يلهج بميلة البخت ٠٠ كأنها تصد العين ، كأنها تعويذة تقولها بطرف اللسان حتى تدارى قوة شريرة تتربص بها بآذان متشوفة تتسمع وترهف السمع ، تنتظر لحظة الانقضاض لتخطف ما بقى فى يديها ٠

وأحسست ما ينخسها فى قلبها ، شكة ثاقبة من خوف أسرعت بها الى الشرفة المزحومة المتراكبة ، تتخطى السلال والمواعين والقفف لترشق الحارة بنظرة عجلى ملهوجة ٠

كانت الصغيرة قد خطفت السلالم المتربة الموحلة بماء الغسيل وتخطت العتبة الحجرية القنديمة التى تآكلت ونعمت أطرافها وانغرز جانبها فى تراب الحارة ٠

ودلفت تجرى ، مستوفزة فرحة بقرشها ، كنزها الصغير يدها تعرق عليه منذ الآن، من الفرحة والتشوف ٠ ونفذت من جنب لوحة العيش على حافة الرصيف الضيق،

وانفلتت من بين قفف الملاف المرصوصة ، فى عتمة العصر ، بأكوام ملونة من العدس الأصفر والرز والبرغل والذرة ٠

وهى تشب الآن أمام دكان السجاير ، تطاول الواجهة الزجاجية المتربة وترفع يدها بالقرش ٠ تعلقت عيناها بالمسرجة الصغيرة الموقدة أبداً بلهب ضئيل احتاط عليه غلاف علبة « بلمونت » حمشت النار أطرافه ، فاسودت ، تنبعث له رائحة شياط خفيف مستمر ٠

تسحرها دائما هذه الشعلة الضيقة المدخنة التى لا تنطفىء ليل نهار ٠

ـ أيوه يا شاطره ساكتة ليه ؟ عاوزه ايه يا ست الحسن والجمال انت ؟

كان قداختطف منها القرش قبل أن تتكلم، فأفزعتها فجأة حركته وضراوتها وخشيته ان ترجع عن عزمها ٠

ـ مصاصة ٠٠

ـ عينى حاضر ٠٠

وهو يدفع بيديه وسط أكوام الثروات اللامعة فى الورق الناعم الملون ، والأوانى الزجاجية التى تحتشد فيها كل الأشياء الحلوة فى العالم ٠ وقد تحيرت البنت وتلدد قلبها من الرغبة فى أن تضم الى صدرها كل هذا ، حفنات حفنات ٠ وغشيتها الأزمة التى تعتورها فى كل

مرة تأتي الى باب هذا الكنز ثم ترتد عنه وليس في يدها الا نتفة صغيرة من أطرافه لا تتحيف منه شيئا كأنما لم تمسسه قط ولم تقف ببابه • سرعان ما تنجاب عنهـا الغاشية اذ ترجع الى الحارة ومعها ما اقتنصته لنفسها ، فاذا هو العالم كله ، حلو الآن كطعم المصاصة التي يتحلب سكرها في فمها المضموم • أبطأت خطواتها أمام دكان العلاف وظهرها الجاف النحيل يحتك بالقفف اللينة وما فيها من أكوام مطواعة هينة الجوانب • وعيناها تجولان على راحة وفي مهل وباستمتاع بين المشـاهد الدسـمة المليئة حواليها • على مهل ، فليس هناك ما يعجلها • شفتاها مزمومتان تحتاطان بالجسم المدور الأملس الذي يشر بالحـلاوة في جوانب فمها ، عينـاها مشـدودتان مزويتان من المص والمتعة ، تلفـان في تؤدة وفي غـير توتر ، بين جنبات عالم لدن طري، على دكاكين العجلاتي والزيات وبياع الفول والموقد المشتعل يفح في الشارع أمام باب النجار عليه كوز الغراء تفوح منه رائحة الصمغ الثقيل والتراب وعطر السكر الرخيص وشوب النار •

ارتفعت عيناها الى المئذنة الضـخمة الشـاهقة ، والنقوش البارزة عليها متربة عتيقة ولـكن راسـخة يتحدد بها نسيج السماء الأزرق الصافي الذي خلا من من سطوع النهار ، وبقيت فيه وضاءة عميقة ، وشرفات المئذنة تعلو متدرجة بأضـلاعها الرشيقة تلوح كأنهـا مركبة على السماء لا انفصال بينهما •

وهي فى الشـــارع المزدحم ، مســـنودة الى الحائط الحجرى القـــديم ، وقد نسيت كل شيء الا هــذه اللذة الهادئة الآن بعد عنفها الأول تقطر حــلاوة بطيئة فى فمها ، وقدمها الحافية تفحص التراب الهين على صخر الرصيف ٠ ثم دفء نهار انقضى يتسلل من حجر الحائط الى عظام ظهرها الهشـــة من وراء الفستان القـــديم ٠ وعيناها سارحتان متعلقتان بالمئذنة وفى جسها حضور غامض لأبيها ، فارعا طوالا راسخ القامة عاليا ٠

بالأمس أعطـياها قرشـــا اشـــترت به « كراملة » ٠ بالأمس اســـتيقظت في الليـــل في عالم مضطرب مهتز وأحست كيانه القوي المتين جنبها ، بينها وبين أمها على سريرهم الجديدى الوحيـــد ٠ وفي نـــوم ليس كاملا ، بحركة كأنهـــا الحلم ، ابتعدت عن الحـــائط والتصقت بالظهر الشاهق ورمت بذراعها الواهيـــة على الهيـــكل المتمكن فى نومته يملأ دنيا حلمها تتردد فيـــه أنفـــاس منتظمة ٠ وعادت الى نوم مريح وقد سكن قلبها تبتسم من الأمان ٠

رأت من باب الجامع شيوخا يروحون ويجيئون فى الطرقة المبلطة النظيفة يتحركون ببطء كأنهم فى النوم أيضا ، رؤوسهم عارية يلبسون قباقيب وجلاليب بيضاء فى العتمة الخفيفة ، ويأخذون الماء ، فى كوز مندى ، من الزير المدور المركون جنب الباب٠٠ «والله٠٠ أكبر ٠٠ الله أكبر » المئذنة ينزل منها صـــوت بعيـــد يشدو

بدعاء طويل كأنما لا أمل فيه وفيه نشوة بالشكاة وراحة اليها ومعرفة خفية ·· وزحمة المغرب في الشارع الضيق ، أخذت تلمع فيها أنوار مضطربة وضجيج مختلط من صلصلة أجراس العجلات وغناء البياعين وصيحات بائعي الزبادى البيتى وتنغيمات الشحاذ وهو يقطع الشارع من وسطه كأنما الدنيا كلها ملك يديه ، وفي يده ولد يردد بنغمة رفيعة ملحنة « عليك يارب ·· عشانا عليك يارب ·· الأجر والثواب عند الله يا محسنين » ·

والضجيج البعيد المضطرب يجعل الغرفة الضيقة تموج بالخوف والوحشة ، جيطانها تتباعد وتنفتح بينها مسافات لا آخر لها · صيحات أبيها الغاضبة تأتيها من آخر الحلم ، ودعاء الشحاذ وترديد الولد « عند الله يا محسنين » · نحن في المغرب أو في الفجر ؟ نداء لا ينتهي يجيء من وراء خصاص الشباك « يا · · غورت ·· الله أكبر ·· يا ·· يا محسنين ·· أكبر » فتدفن رأسها في المخدة وتحس السرير يرتعش ويصطك تحتها وتغمض عينيها ، تزيد من اغماض عينيها عن عمد ، بشدة ، كأنما بذلك تحجز نفسها عن السمع · وأمها تحبس البكاء في ركن بعيد من الابعاد التى لا آخر لها · وهى تغوص في الليل المليء بالظلال والاصداء المتحركة القلقة ·

وتفتح عينيها في العتمة ، على اهتزاز السرير ،

ويتجمد جسمها على الفور ويتوتر · انها ميتة · وتسمع فى الظلام وفى موتها وشوشة وهمسا حارا وأصـواتا فيها لذة كأن أحدا يستقطر بين شفتيه حلاوة مصاصة · هى ميتة ، ميتة · وتضغط على عينيها حتى لا تنفتحا ، فان الميتين يكونون مغمضى العيون لا يتحركـون أبدا متخشبين · وخشب السرير يهتز عـلى أمواج رتيبة · وفى موتها المضطرب المغلق العينين تسمع شكوى طويلة « الله ــ أكبر ·· الله ·· أكبر » · هل يجـدونها فى الصبح ميتة ؟ وتولول أمها وتدق خدودها وتملأ الدنيا بالصريخ ؟ سيجدونها ميتة فى الصـباح · والشـيوخ البيض الجلاليب سيصبون الماء الدافىء من الزير عـلى جسمها العارى ، بالكوز · ماء ساخنا على جسمها العارى الممدد على البلاط فى طرقة الجامع ، والهواء تحسه باردا على جلدها المكشوف ، يهب عليها من الباب ·

ــ مادا ·· بت يا مادا ·· مصاصة آنا تمان ·· عاوز مصاصة ·

التفتت الى الشىء الصغير الذى يتوثب جنبها ويشد يدها المرفوعة الى فمها بالمصاصة · وعلى وجهه الملطخ بالتراب خيوط نظيفة من دموع مازالت تتقطر من غير صوت ·

ــ يوه مالك يا ولد يا محمد ؟

ــ ندية ، خالتى ندية ضربتنى ··

يحكى عن حدث مضى ، بسببيله الى الاختفاء منذ الآن ٠

تأملته فى غير عطف ، دون قرابة ٠

دائما تضربه نجية زوجة خاله وتطرده لأنه يلعب فى الراديو وينحشر فى الشباك ، ويعطل عليها ٠ وتنقلب الدنيا بينها وبين أمه نفيسة ، وتثور عركة ترتفع لرب السماء ٠ لكن الدموع تتسلسل من عينيه دون بكاء ومازال يشهق بانتظام ٠

ألقت ماجدة بذراعها على كتفه الصغيرة الواطئة تحس نفسها قوية عالية ٠ وتحسه يحتمى بها ، عظامه الرقيقة فى الجلباب الفضفاض تهتز مازالت من شهيق البكاء ، يستند اليها كأنه من خرق طرية لا تعرف الرفض ٠

وهو يتطلع الى ما فى يديها من حلاوة تعوضه عن غضبة العالم وضجيجه ٠

وانفتح فى نفسها عمود مندفع من ماء الحنان يفيض على الوجه الذى يرتفع اليها وضيئا بالثقة ٠

فأعطته المصاصة منداة بمد من ريقها كما تعطيه جزءا من نفسها ٠

وتململ الولد تحت ذراعيها وتفلت منها واستدار عنها قليلا ، وقد استغرقه مص الحلوى التى كادت تنبرى وتنسل من خشبتها الرفيعة ٠ شفتاه لهما حياتهما

الخاصة ولغتهما الخاصة من التلمظ والتذوق الجشـع مزمومتين رقيقتين متحركتين · شفتين مدربتين حديث عهـدهما بالشـدى الذى ينز بأمل قليل وعذوبة عصية على الاستنباط · ولاح لها ان وراء هاتين الشفتين ثمة سنتين ناتئتين تضغطان من الداخل على جانب اللحم الحى الذى يستقطر السكر ويرتعش باللذة ·

ـ ياما ·· جدة ·· يا بت يا ماجدة يا بت ·· هى البت اتخسفت فين يا خـواتى ؟ هـو انت اتربطت خلاص يا بت انت فى الحارة ؟ يابت يا ما ·· جدة ·

وجه أمها مطل عليها من الشرقة الضيقة الملتصقة بالحائط ، مدورتها محبوكة على رأسها ، اللهفة والخوف يتنازعان قسمات الوجه الأسمر المضىء فى قتامة المغرب، خزيانة من وجهها المكشوف فى الحارة وصوتها على ذلك يتهـدد ملء المغـرب بدفء أنثـوى كثيف لا تمتلىء به الا أصوات الأمهات الشبعانة بالأمومة ·

ثم اذا هى فجأة وحيدة ·

الحـائط الذى كانت تسـتند اليه بعيد عنهـا ، وما حولها فراغ ·

وأدركت دفعة واحدة ، أحست لحظة واحدة قبـل أن ترى بعينيها ، ان الولد قد ذهب · انه تسـلل من جانبها ، ان ذراعها لم تعد ترتكز على هيكله المشدود ، انه لم يعد محتاجا اليها · ان أحدا لم يعد محتاجا اليها ·

ثم التقطته عيناها ، دون بحث ، كأنما كانتا تعرفان لوحدهما الاتجاه الذى انسل فيه الولد دون أن ترياه يجرى بخطواته القصيرة المتلاحقة وسط الحارة بين زحمة الناس المتدافعين ، وجلبابه الأبيض الطويل تتعثر فيه قدماه الحافيتان المتداخلتان وهو يتخايل مبتعدا بين العتمة والأنوار •

تحجرت رجلاها في وقفتها ، لم يخطر لها أن تجرى وراءه •• وباستطاعتها أن تلحقه فى لحظات • كأنما انستها الخيانة مقدرتها على الحركة وآحالتها عمودا من الملح •

ولأول مرة أحست يدها صفرا خاوية وفى صدرها فراغ هابط الغور ليس له قاع • كأن الرضة التى صدمت قلبها شلته أيضا • وقد جف ريقها ، وفى فمها طعم الخشب • الضجيج حولها يبتعد بسرعة ويهبط الى طنين يأتى خلال طبقات مسدودة ثقيلة من تحت الأرض • وبيوت الشارع تسقط مرة واحدة والمئذنة العالية تميل الى الوراء مع كتلة حائط الجامع كله ، الجدران والدكاكين والأبواب الصامتة تفترق وتهرب منها • وحدها ، هى وحدها • عيناها جافتان مشدودتان الى النقطة البيضاء التى تجرى هاربة منها فى الزحمة تحمل شيئا لا عوض عنه •

وأمها مائلة الى حاجز الشرفة ، قلبها مشدود من هذه الصدمة الصغيرة المضحكة التى أصابت البنت • خطف

الولد منها مصاصتها وجرى • مضحكة هذه الحكاية • لكنها تعرف ان هذه القطعة الصغيرة من نفسها ، واقفة هناك بجمود فى الشارع ، انما ترتعش الآن بما ينبض به قلب واحد ممدود داخل الأجيال جميعا وعبر الناس جميعا أطرافه مشدودة حتى آخر فتائلها ، مغروز على مسامير ، مفتوح فى الهواء ، ترتعد شرايينه العارية الرقيقة بالدم الساخن تخبطه صدمات لا تنتهى ، ويظل يرجف حيا •

وهى تستند بكوعها الى الحاجز الخشبى ، والشباك الى جوارها فيه تلك المرأة جنب الراديو الذى ينصب منه غناء طويل رخيص البكاء •

نسيت خجلها وانه عيب أن تطل مكشوفة الوجه فى الحارة ، واعتمدت خدها بيدها وعيناها هى أيضا معلقتان بالولد الصغير الذى هرب منها ، أخذ المذاق الحلو من فمها وجرى • كان قد تسلل يستشرف النظر اليها ويشد يدها • وابتذلت له قلبها واحتاطت عليه بذراعيها وحضنها ترعى نارا صغيرة تشتمل فى عينيه الضيقتين ، تحترق بها أطراف نفسها • وعطيتها له متعة لها مع ذلك وسعادة • لكنها الآن يتدافع بها الناس فى الزحمة •

يداها لن تنضما عليه قط • ذراعاها لن تلتحما أبدا حول أركان جذعه العضل الشامخ • بل تقصران

عنه وتسقطان الى جنبها ٠ رجولته وعقوقه واستغناؤه تهزم امتدادها اليه ٠

وهى تنهد وتسقط فى الداخل ٠ صلابة الأرض تتلقاها وقد غاضت من جسمها كل عصارة ٠ الحصيرة ترتفع الى لحمها فتصده بخشونتها وتوقف انهياره بثباتها الذى لا يرتج ٠ والظلمة فى الحجرة الخاوية تنبثق فيها ظلال قوية من أعمدة السرير الحديدى فى أركانها الشاهقة تسد السقف الذى يتصاعد ويبتعد ، الى أعلى فى الظلام، ومازال يبتعد، فى سماء قاتمة ترتفع بسرعة ، وحواليها أثاث حياتها الرث ، وآنية حبها وحبوطها مائلة على جنبها مثنية الأطراف ٠ تحتاج اليه ٠ تحتاج اليه ٠ هى تحتاج اليه ٠

لكن البنت الصغيرة لا تحتاج الى أحد ولا الى شىء ٠ وجهها الصبيانى فيه كبرياؤه ٠ وهى واقفة فى الشارع، بعيدة ٠ سوف تعود لأمها بعد قليل وسوف تجد عروستها ٠ وأبوها سوف يرجع آخر الليل ، ويعطيها فى الصباح قرشا ، وعملة صغيرة أخرى من الحب ، لكنها ليست بحاجة الى شىء ٠ وهى عندما تنظر الى آخر الشارع ليس فى وجهها نضوج ، ليست فيه خبرة وليست فيه حتى نعمة النضارة ونعومة الطفولة ٠ ولكنه ليس متوترا بل فيه فراغ ، شاحب قليلا أبيض فى العتمة ، تحت شعرها الاسود الكثيف المسرح ٠ وجه أمسح ، خاو ، جامد ليس فيه دموع ٠

القاهرة ٧ فبراير ١٩٦١

الأميرة والحصان

انكسر العمود ، وندت عنه دقة واحدة ، نهائية • وانطبقت الظلمة ، والدهشة • تهـــاوت عظامه عــلى الأرض ، طرية ، كالماء ، تجتذبها الرمال المتربة القذرة المتماسكة • وعندما فتح عينيه كان السقف عاليا جدا ، بعيدا ، بقماشه المسود الصفيق ، متهـدلا بين عــروق الخشب المائلة ، ساقطا على العمود المربع المفتول •

لم تكن هناك نسمة هواء • وفوق الصخب والضجة والنور ، كان فى السقف ثقب صغير اسود تبرق فيه ، من بعيد ، نجمة وحيدة صلبة ، عين قاسية • والعرق ينثال من بين ابطيه ، خيطا ساخنا جــديدا ، والأرض خشنة تحته بحبوب الرمال والتراب الدقيقة الحضادة • والفحيح ما يزال يزأر كالمعتـاد ، عن الكلــوب الضخم المدلى ، شرسا ، على رأسه • سحابة مسدودة من الناس تتجمع حواليه بسرعة ولا تنهمر ، ولهم طنين ، يحدقون به من كل جانب ، كالناموس الكثيف تحت شمس ظهر حار • ومن ورائهــــم موجات متراكبة من الضـــجيج

واللغط ، لا بلل فيها لشفتيه ، تتكسر على هـذا السور من الأجسام المنحنية عليه ٠

لم تكد تمر لحظة واحدة ٠ هادئة تماما ، خاوية ، لم يشاركه فيها أحد ، ولا شيء ٠ تقوض فيهـا هيـكل كل شيء ٠ صدمة الألم لحقته فجأة ، زلزلته مرة واحدة، وغمرته ، وأغرقته، ثم انحسرت عنه ٠ وتركته مغسولا، أبيض ٠ ضربات الطبول توقفت ثم عادت ، وموسـيقى النحاس تصطفق ٠ كانت عيناه صاحيتين ، وهـو عـلى الأرض ، لا يحس الآن ألما ولا دهشة ٠ وجلبة النـاس حواليه ، يشورون ويتصايحون ، ضوضـاء لا صلة لها به ٠ وحواليه فراغ كامل ، فجوة له وحده وسط زحام متكاثف مكتوم ، وهـو ينظـر اليهـم بعينين لا غيـام فيهما ٠

دخلوه من هنا ٠ حاسب ٠ تليفون للاسعاف ٠ فيه دكتور هنا ؟

الاسعاف جاى ٠ اعملوا معروف والنبى ٠ لا سليمة الحمد لله ٠ مات ياعينى الجـدع ٠ يا حرقة قلب أمك يا خويا ٠ بصوت ناعم هادىء مدفون ٠ سليمة ٠ ماردش منطق ٠ سليمة ٠ ان شاء الله سليمة ٠

دخلوه هنـا ، الاسـطبل من هنـاك ٠ حاسب ٠ اعملوا تليفون للنجدة ٠ والطبول تخبط ، لا تدق له ٠ طنين الذباب الأزرق الكبير فى شمس الضحى العالى ،

وتحت وجهــه حس فتائل الخيش الخشــنة ، والتبن ، والتراب ، برائحته الجافة المصوحة الحريفة فى الشوال تحت صفحة خده وفى أنفه وفمه • وهو يتقلب ، ويفتح عينيه فى عتمة صباحية يحيط بها قماش خيمة الاسطبل الــكابية القــديمة • وســلطان يزفر فى معلاق التبن تحت خطمــه ، وينفخ فيــه الهشــيم الأصــفر الدقيق المتطاير مع الغبار والذباب فى حزمة الشمس الساقطة بين فجوات القماش •

يدق الأرض فى توفز ، بحوافره القوية ، وساقيه الأماميتين المخروطتين الرشيقتين • ومن ورائه الخيل الآخرى مربوطة فى أوتادها المرتفعة ، فى آخر الخيمة •

الساعة كم ؟

عشرة •• احدى عشرة •• غسيل الخيــل الآن ، وتمشيتها فى الحوش • دبدبة الأرجل حوالى الاسطبل ، وشتائم السياس واللاعبين والمروضــين والعيــال ، من الخارج ، مكتومة ، نبحات الكلاب الدقيقة الثاقبة وزئير السبع العجوز ، أجوف قصيرا خاويا ، مع صلصلة باب القفص •

وهب يجلس على فرشته وظهره يطقطق من وجــع النومة على الأرض الجافيــة • يلعن ديك دى بلد ، لم يطلعوا منها حتى بثمن العلف • مازال على مولد سيدى البدوى شــهور • ربك رزاق كريم • مولد امبــابة ،

ومار جرجس ، والمنصورة ، وسيدى الدسوقى ، والأسواق ، وموالد القرى ، هدة حيل من السفر والقيام والحط بالسكة الحديد واللوريات وآخرتها نفس النومة على الأرض فى كل مكان . أم لعله العجوز ابن الكلب يريد أن يأكل حقنا . جار ونار فى جتته . بس يشغلنا سايس وبلياتشو وبياع تذاكر وصبى عالمة ، مغسل وضامن جنة كمان . والله لو ما السبت أميرة . نهايته الأرزاق على الرزاق .

يا فتاح يا عليم على وش الصبح . وتوقفت عيناه فجأة على العصافير ، وجمد . كانت العصافير تثب وتزقزق فى خفوت ، بين سيقان سلطان الرقيقة السامقة وأجنحة الذباب الأزرق الكبير التى تعكس شعاعا بنفسجيا زاهيا ، وتنقر بعظام أفواهها الدقيقة أكوام الروث السوداء عليها الكرات الجديدة الصفراء الساخنة التى يتصاعد منها بخار خفيف ، وتنط على التراب والتبن ، صغيرة متوترة بريشها الرمادى الداكن فى غبش الخيمة فى الصباح ، تفترق وتلتقى على العلف والتبن وبين جرادل الماء وفرش الغسيل ، وتسقسق بصوتها النحيل بين المجارى المتعرجة التى خطتها على الأرض مياه بول الخيل . والرائحة النفاذة تتوقد وتشعره بالفة وأمان ، بأنه فى بيته ، بين هذه الأجسام العضلة الحية التى يستمد منها جوهر حياته ، لا يستغنى عنها ، والبطون المستديرة الضخمة تنبض أمام عينيه ، نبضاتها السريعة .

وصهل سلطان فجأة ، ورفع خطمه المبلل الذي علقت به نثارة التبن وتطاير منه رشاش سريع ، وجاوبته بربرة متلاحقة من صهيل بقية الخيل ، فتواثب العصافير في لمحة ، سحابة صغيرة من الريش الذي يزف والشقشقة الثاقبة المذعورة ، الى فجوة ضيقة في قماش الخيمة الممزق رشقت أنفسها فيها في انطلاقة مسددة لا تخيب • وضحك ، ووقف ، يحك أنفه من التراب ، وفي فمه جفاف القيام من النوم في الضحى العالى ، يستشرف سخونة طعم الشاى وسلساله الطيب على اللسان وفى قصبة الصدر ، ومد يده يطامن توترا ساخنا جافا من وخم النوم الدافىء ومن رائحة أجساد الخيل •

طالما نشقها من استدارات طرية أخرى ، من حنايا اللحم اللدن تحت مايوه الشغل الساتان الأبيض ، في ضوء الكلوبات الحار المشبع بالتراب • وسط الموسيقى النحاسية الجعجاع ، وهدير الناس على مقاعدهم الخشبية ، وهو يتدحرج ويلعب نمرته فى الليل ، والساقان الخمريتان الصلبتان على ظهر سلطان قائمتان، من رخام لامع ندى مسنون ، يحملان جلال الدنيا وطراوتها ومجدها • وقرقعة السوط المرفوعة به ذراعها الملفوفة الناعمة • نضيرة بلمعة العرق ومتوترة، عالية فى الهواء ، ودورات سلطان الضخمة الرشيقة المتسارعة باطراد ، حول الحلقة ، وهو تحته وجنبه يتقلب ويجرى ويدور ويثب ، ويلطم وجهه من الخوف والاعجاب فتترامي اليه الضحكات الخشنة التي ينفرج بها

توتر الناس أمام خطر الدورات الجريئة المحسوبة ، وأمام الفتنة المتحدية التى تقطع الأنفاس من المايوه اللامع المحبوك ، والرائحة تغزو جسمه الآن ، ويتوتر لهـا ، أميرة ، أم سلطان ؟ حريفة ، لاذعة ، بها عطن حلو من نفح العرق الانثوى ، وذكورة الخيل معا ٠

ويفجؤه الصوت الخشن العذب ، صوت بنت البلد الذى يصدر عن حرية كاملة ، دون أدنى كف لما يجيش فيه من غلواء شبابه :

هو ابن الكلب ده لسه ما قامش ٠ انت لسه نايم يا واد انت ؟

مالك واقف مبلم كده ياد ؟

هم شف شغلك بقى يابن الـ ٠٠ بنبرته الممطوطة، وسيطرته ، ودلاله ، ومعرفته بأنه لن يرد ، وثقته التى لا يعتورها شك بأنوثته اللينة ٠ وهى تنحنى لترفع قماش الباب ثم تتركه ينسدل ويحف التراب ٠ ويحيطهما ، مع الخيل ، حضورها الحميم الحـار فى الخيمة المقفلة ، وتولد الحياة فى الجسم الفتى ، تحت الجلابية الرجالى الواسعة المشمرة الكمين التى تحب أن تلبسها فى الصبح ٠

الله ــ ما بلاش شتيمة على الصبح يا ست آميرة ، يا فتاح يا عليم ٠

باحتجاج من يعرف انه ليس هناك ما يحتج عليه ٠

ما احنا قايمين أهوه • ما تصلى على النبى امال ياست الكل • نهارك حليب ان شاء الله •

يا صباح الفل • طقوس معابثة الصبح التى تفتح أيامه وتحليها •

فل ايه يا واد اتنيل على عينك • ما تبطل لماضــه يا واد ، نهارك أبيض يا خويا ، هم يا واد بقى بلاش لكاعة • بسخرية حميمة أليفة فيها رضا، ولا مبالاة، وقد وضعت يدها تضغط على عنق سلطان التلماء العضلة ، فراح يحمحم، بخطمه المبلول ، فى يدها الأخرى الممدودة بقطعة السكر تحت شفرتى فمه الغليظتين المرتجفتين ، وعيناه متسايلتان من الحب • وهى تلقى اليه بنظـرة بينما ينحنى يلملم الفــرش وينفض معـــلاق التبن ويصطدم بالكيزان ويرفع الجرادل ، بساقيه الهزيلتين السوداوين الناصلتين تحت لباسه الأصفر الواسع المتهدل الى ما فوق ركبته والبــلوفر القطن الحــائل الاخضرار على فانلة نصـــف كم اهترأت رقبتها ، من تحت البلوفر المغضن ، حول قفص الصدر الناحل المدور •

ويهرش شعره المجعد ينفض عنه نثار التبن ويحك منه تراب النوم ، وســقطت يداه الى جانبيــه ، ذراعاه ضــاويتان متسختتان لا قوام لهما • وســلطان بجــلاله الرشــيق يدور ، يدور بسرعة ، ينزو صــاعدا وفوقه النصب القائم الجميل ، لامعا ، متوترا فى توازن ثابت

ولكن حرج رقيق ، مشحون بحياة متفجرة مكبوحة معا ، والتوتر في حواف المايوه الأبيض يتألق تحت ضوء الكلوب ، وينطفىء ، ويتوهج بألف لون ، يعلو ثم ينخفض ، وهو ينظر برأسه المسبوكة المنحوتة الى مواقع حوافره التي تعرف ايقاع دقاتها على الأرض ، ويفلت منه وهو يجرى حواليه ، يدور ويتقلب على الرمل المفروش الترابي ، وينكفىء على وجهه بحركاته التي حذقها حتى كاد ينساها .

ومازال سلطان ينفلت منه ، يسبقه ، وفوقه أميرة ، يقتحمان المدرج الخشبى ، يلف مرة أخرى ، في الهواء ، جسمه الأشهب المشوق يخترق الناس المتحلقين الساكتين، يدور بهم ، وفيهم ، يمر من خلال الألواح الخشبية الرثة المتمايلة ، ينفذ عبر الأفندية بالجاكيتات الضيقة الكتفين على الجلاليب الأفرنجى ، والمعلمين بكروشهم الراسية وقفاطينهم الجوخ الغالية وشيلانهم الزاهية الحريرية ، ويثب على دكك الترسو المكظوظة بالجلاليب والطواقى والعمم والملايات اللف . على ثبج ظهره العارى المسبوك الأملس عمودان من مرمر مخروط ينهضان بالجسم السامق الذى تهتز فيه أمجاد العالم ، في الساتان المحبوك ، في سورة ساطعة ، بلا صوت . السوط في يدها تلتوى انثناءاته السريعة لسانا حادا نهما ملتهما ، دون قرقعة .

لماذا سكتت الطبول ؟ الآلاتية في التخت يدقون

ويخبطون ، وأقراص النحاس ترتطم وترتعد بين اليدين المحمومتين ، فى ذبذبتها الكهربية الخاطفة ، ولا صوت •

الأفواه محيطة بالأبواق تمسكها مسكة خبيثة لا تريم ، الرقاب منتفخة الأوداج من عزم النفخ ، ولا صوت •

سلطان يدور ، فى تصميم لا يبالى شيئا الا دورانه، وأميرة ترتفع حتى تكاد تمس قماش السقف الاسود الداكن ، فوق الكلوبات التى تئز بنور شرس ، ثم تهبط فى وسط الناس بين عواميد الأخشاب المتشابكة ، من خلال الدكك الطويلة الدائرية المتأرجحة ، يحملها اندفاع الحصان الذى يشق أمواج الصمت والوجوه الصلدة الصخرية ، وزحمة الأجسام المتلاصقة لا يند عنها حس ، ولا صوت • نواة صلبة من عناد مغلق متحجر، فى غور الأحشاء الطرية المبللة المرتجفة بالدم، لا تند عنه آهة • غاشية متملكة تطوف بقضيان الضلوع الخاوية دورة بعد دورة ، حول البذرة الجافة ، تسمو وتسوخ بها الأرض •

فى البؤرة جيشان مكبوت يهم بأن يلفظ نفسه ، ويمجها ، ويصده اصرار ما ، ويحدق به تماسك العظام الحرج ، فى وسط الحلقة الدوارة ، عمودها قد انكسر، ولا يسمع له صوت • حفيف النفس يلهث ، ولكنه يعمل بانتظام • مركز ثاقب من النور يجرح ، يجرح العينين،

ابرة مرهفة السن مغروزة بثبات فى حدقتى العينين المفتوحتين ، لا تطرفان • كحل يحيط بالعينين الحلوتين •

ما أندر العيون الحلوة ، وطفاء ، أهدابها تفرش على الخدين الاسيلين القمحيين ، فيهما خجل ومعرفة نضرة بعد وعميقة معا ، عروس جديدة بفستانها البمبى برقبة مكشكشة ، تحت الطرحة السوداء ، وعقد كبير أصفر الحبات ، وعصبة الرأس بالمنديل تبدو تحتها قصة الشعر السوداء الناعمة ، والى جانبها زوجها الفتى بوجهه الناحل الخشن المجدور الجاف، وعينيه القلقتين ، عمودى فى جلسته المحرجة ، جلابيه ببوشها لم تغسل بعد ، رقيقة النسج يتطاير بها الهواء على أوتاد متراكبة من خشب عظامه ، وطاقيته بفتة بيضاء مزهرة •

يجلس فى توفز يشى بارتباك مدوم ، والبنت بجانبه دسمة طيعة ، تدور بعينيها الحلوتين المكحولتين فى الناس ، تنظر اليهم لأول مرة كأنما انجابت عنهم — لا عنها — غشاوة عذرية كانت تحجبهم ، فهم يسبحون الآن فى ضوء كاشف متغلغل ، وهى تراهم الآن بعين فيها خبرة جديدة •

وهو يتدحرج مع العينين بين سيقان الحصان الوثيقة المدملجة التى تطفر بلا صوت وتشوح به فى الهواء ، على كتفى البنت الصغيرة السمراء ، بوجهها الجائع ، وصدرها الأمسح الضيق ، فى فستان العيد

المجعد المغضن الثنيات، ترفع ذراعها الممصوصة الطينية، بنصف كم ، تنزلق عليها غويشة زجاجية لامعة ، وتتعلق برقبة أب عجوز مخدد الوجه ، ناتيء مشدود الجلد على عينين محترقتين ، تحت طاقيته الصوف الكابية .

البطن الأشهب المستدير ينبض فى دورته ، يغوص فى مياه الوجوه ، يشق السطح ويهبط بلا نفس ، وفى اهتزازات المياه الشفافة . شنط مفتوحة متدلية تستطعم، فى وهم حسى ، مذاق عجين الجسد المشدود وقبابه الخمرانة ، وكوفيات ملتصقة برقاب مختنقة . الحوافز الصلبة الدقيقة تدق فى الهواء ، وترسم ايقاعاتها الهندسية المحكمة ، فى عطن الملاءات: اللف القديم المسدود على نفسه ، يلم عطب نصف العمر ، فى وخامة دفء تفه الطعم لا حرافة فيه ولا حلاوة ، لم تعد منه جدوى .

العينان المدورتان اللامعتان الذكيتان مصوبتان الى الولد الذى يضحك ، دون صوت ، فترد عليه البنت الشقية الممراح بابتسامة صافية ، بدلال ، وتدفعه فى صدره ، وهى تفتح فمها وتغلقه ، تومض أسنانها ، تشتمه وتضحك، بصمت ، تمتمة شفاه فى قراءة صلاة ، على حصير ناعم محاط بأعمدة حجرية بيضاء وشبابيك زجاجية منقوشة بأشعة شمس أرابيسك .

الرقبة الشماء شامخة تنتهى بعضلات وطيدة عند

أركان الصدر العريض المتين الأساس ، تمزق كثافة الناس باعداد فيه كل التمكن والجلال . وهو يتقلب معه ، يقوم بشغله ، شأنه كل ليلة ، عيناه معلقتان بنجمته الشاهقة ذات الأشعة القوية الراسية القواعد على متن موج أشهب وثيق العضل ، تطير في الهواء ، وتنقلب ـ هذه لعبتها المخيفة الرائعة ـ على ظهر الحصان، وتعتدل على الفور من جديد ، مشدودة ثابتة ، وتخطف أنفاس الناس ، ويدوى رعد التصفيق والضجيج ، وتعود تدور ، وتنقلب من جديد ، واذا البنيان يميل ، أهون ميل ، ويتضعضع ـ لحظة واحدة أو أقل ـ وقلبه يرتكض في جوفه ، من اللهفة والفزع، ويتطاير هوجا، وهو يندفع في لهوجة مجنونة وتصميم لا يعي شيئا الا انه يبذل نفسه فدى ، يقيم من جسمه السفساف الضامر صخرا أمام الموج المتحدر المتهاوى .

هل استقام البنيان المتقلقل ، واعتدلت على عودها سارية الشراع ، أم انصهرت الدعائم وتسايلت في زلزلة عارمة جرفت أمامها نقاضة السد الضئيل ؟ لم تنتفض به الا انطلاقة رمت به تحت أقدام كل المجد الذى في حياته ، الذى في الحياة ، يقيه ـ بكل ما لديه ـ من خطر التقوض والتردى .

وكل ما لديه لا تبدو له أبعاد ولا أوزان ولا ضخم . لا يعرف لا يخطر له أن يعرف ان كان شيئا كهبوة غبار

تسف به نسمة هواء أم ضلعا من جبل يملأ حيز الوجود كله ، جلدا راسخ المتون . الناس فى ماء جمودهم الصفيق المصقول ، يهدهدهم الخطر وتهوم بهم سحابة استغراق كامل مبهوت ، وما من شاهد على هذا التفلت الذى طوح به ، هذا النزوع للاستشهاد ، دون شهادة .

تدحرج البلياتشو . على الأرض مرة أخرى ، دحرجة رثة ، لم ينتبه اليها أحد . ولم يتحرك . ومضى سلطان فى دورته ، وعلى ظهره العارى صرح ثابت ناعم عال من جسدها المنتصر الذى ومض حجره الأبيض .

ساق رقيقة ممشوقة مشدودة العضل ، متفجرة متنزية بحياة لا ردة لها ، ضربته ضربة واحدة ، أم وقعت الخيمة كلها ، وانقض العمود ، وسقطت السماء ، وجندلت الأشلاء ملمومة فى اطارها الذى انقصم ، وهيض ، كأنها سليمة لم تمس ، طرية كمجرى من الماء النزر على رمل قليل ، سريع الى النضوب . وشمس صغيرة قاسية تحدجه ، فى الصمت ، من غير دهشة .

ينفجر كل شىء بالصوت فجأة ، فرقعات البمب فى الخارج ، وقصف الطبل الضخم ، رتيبا أجوف ، يرن كل صدى له فى احتشاد ملىء ، وقرقعة الصناج النحاسى وهزيمة المرتعش ، وانطلاق البوق فى تموج كثيف يسد المسامع وأزيز الكلوبات سرب هوام متقد مستمر لا ينتهى له احتراق . وسع يا جدع تلاتة بريمو عندك . فتح عينيك تأكل ملبن .

وهدير الأصوات في لجة مترابطة الأطراف ثقيلة القوام ، وضحكات انثوية متخلعة وتحـديات متحرشـة واثبات الجدعنة بصوت جهير ، وجلجلة السبع العجوز، وحمحمة الخيـل ، والـكلاب توقوق خائفـة بصيحات صغيرة ، وأنفاس التراب تحركه الأقدام وزحمة البهجة بالمولد تطن وتدور فى سحابة من دخان مشاعل النيران ومصابيح الغاز على عربات الترمس وكهرمان الحمص المدور الصغير وحب العـزيز اللحمي الأشـعر وأزيز مزامير الغـوازى وزمزمة المواويل الطـويلة وغرغرة النراجيل ونشيش عدة الوشـم عـلى الأذرع والصدور والصوت المبحـوح يجأر فى قلب الغمار فتح يا جـدع الرجا الابتعاد من السبوعة اللى معاه عيل يمسـكه فى ايده المروضة المصرية العالمية تدخل على الأسـد البنت المصرية تشكم الأسد يا جدع وتلعبه فتح عينك وصـلى على النبى ملحة فى عين اللى ما يصلى على النبى السـت داخله على الأسد يا جدع ٠

وتعليق بذىء وضحكة مقرقرة طـويلة متحشئة ، ودقات الطبول قد جنت وفقد النحاس كل ايقاع وعاد رعدا مقعقعا متعاقب الخبطات متواليا محموما ينتهى الى سكتة غائرة عميقة جـوفاء ، ثم فرقعـة السـوط ، وصفقة باب القفص يصلصل بالقوائم الحديدية ، وقد احيط بالبنت والأسـد فى وسـط القضبان ٠ الـكل يصقف ٠

اللى يحب النبى يصقف يا جدع ٠ ومطرة متنـاثرة

القطرات من التصفيق لا اقتناع فيه وان كان فيه فرح، وهيصة .

والزئير الواهن العظمى له صدى بدائى مسحوق ، دورة مذعورة أمام العصا والكرباج، رأسه مائلة منكمشة ونظرته المنطفئة مثبتة بالتهديد الماثل أبدا ، ثم وثبة كقط منهوك على الكرسى العالى وقد استراح من تعب اللف والدوران ، والعرف الملبد بالقذارة والتراب متدل على ضلوع نحاسية صدئة معفرة .

وهو يدور ويتقلب على الأرض ، يدخل القفص من خلال القضبان القائمة ويخرج منها . كأن الحديد المنصوب خطوط ماثلة فى ناظريه وحده ، وهم مشقق لا يراه أحد غيره ، ويصفق بيديه ويلطم وجهه فى رعب مصنوع لاستهلاك الناس ، واعجاب موضوع الخطة ، وضحكات قليلة تصل اليه ، ونفحات هذا الكائن ذى الألف وجه والألف عن والألف يد يملأ خيمة السيرك المهدلة المحتشدة بأنفاس بدائية أعمق وقعا من الزئير الأجوف الخشن المبحوح .

يستفزه ويستفزه هذا الجمع الوحشى الذى يتملظ بتهديدات متهاونة الأركان فيريد أن يثبت له شيئا ما لا يدريه . فهو مع الأسد وزمجرته ، وتحت سيقان الحصان ، ومع البهلوانات ، ووراء الراقصة ، وحول الحلقة ، وعلى طول الحلبة وعرضها ، يقفز ويقع ويتدلدل ويندلق ويتدحرج ويتدأدأ فى هرولة

ويتدربا ويبرك على الأرض جامد الوجه مصبوغا يتهاوى وينط ويجرى فى دردبة ويتشيطن ويعوج خلقته المرسومة بالأبيض والأحمر للصغار والكبار ويطفح الدردى ، بلقمته ، فى الليل والنهار .

عندما فتحت عينى ، على صهيل الحصان وحمحمته ، كانت تقف على رأسى فى الاصطبل ، كانت قدمها فى الشبشب المفتوح تدفعنى فى جنبى ، بأصبعها الكبير ، توقظنى وهى تشتم شتيمتها الصباحية المألوفة ، وثورة عاتية من صدمة اليقظة وألم الدفعة فى صدرى تهزنى وتمخضنى وتضطرم بجنونى ثم تنفثىء فجأة وأنا فى خدر اليقظة المضطرب .

وكانت واقفة فى العتمة ، فى رائحة الدفء الحيوانى الساطعة الكثيفة اللاذعة ، والجلابية الرجالى تسقط على ركبتيها لتؤكد ملاسة مدورة ناعمة فيهما ، وقدمها اللدنة ، بعظامها المكسوة المبطنة ، مرفوعة فى حركتها السريعة ، بيضاء منبثقة ، بحياتها المتحركة المشدودة ، من عتمة الجو ، ومن العتمة الداخلية الأخرى للثوب السابغ المنسدل .

رفعت رأسى من النوم أحس انى أموت من اللهفة ، فى داخلى عصفور محبوس يتخبط فى ضلوع صدرى ، أصابه سعار انطلاق لا سبيل اليه ، وجهى يتقلب على خيش المخدة المحشوة بالتبن والهشيم ويتعرف مرة أخرى — كم مرة ؟ كم مرة ؟

على خشونة الخيوط الجـافة المتربة ، ويتلمس ـ عبثا ، بلا جدوى ، بلا طائل ـ رقة بيضاء فى بطن القدم المكورة المسحوبة ، فى فجوتها التحتية الحميمة الناعمة .

ومن الظلام يتقلب ثنايا عجين آخر متخثر وعطن، والبت عزيزة زمبلك قد نضت عنها فستانها رمشى العين النبيذى وألقته عنها بسرعة وبلا اهتمام فى حركةآلية ، كما تفعل الفلاحات ، وارتمت على الأرض ، تريد أن تخلص وتفرغ من الأمر من غير عطلة ، ووضعت الورقة أم خمسة شلن فى مخبئها بين ثدييها الممتلئين ، ورفضت أن تخلعه .

زفرات الخيل النائمة ، فجأة ، تطس الرذاذ عـلى التبن ، والذيول تخبط صفحات الكفلين فى توفز ، تهش شيئا فى حلم الليل ، وخيشـة الفرش الخشـنة تتلقى العجينة المسكوبة على الأرض وطـوايا اللحـم مازالت عالقة بها رائحة البودرة التى تفرش بها كل امتدادات جسمها كل ليلة قبل الرقص .

طنين الهوام والبعوض الصغير تحت نار الكلـوب الوحشى النهم . وقد تضرجت ، وزوقت كل بضاعتهـا المتراكمة للعيون ، يا قشطة ، أيـوه كده يا مهلبيـة ، أموت أنا ، نظرة يا حلو لاجل النبى . وهى ترقص ، على وجهها فتحة ابتسـامة منسية ، وهـو يتقلب ، من ورائها على الحلبة ، تحت ألف عين ، وحواليها ، طـول الليل يتدحرج ويهرج ، يستجدى الضحكات النزرة ،

ويطيب لكل النمر ، من الأسد للراقصة ، من الكلاب للحصان للبهلوانات ، بوجهه المرسوم بالأبيض والأحمر، ببكاء مصبوغ دائم ، وبنطلون مهدل مرقع بكل الألوان، وضحكات الجمهور وهتافاته البذيئة ، مع موسيقى الرقص المتراخية ، كأنها هى أيضا تؤدى واجبا ، بلا حماس .

وهى تدفع بساقيها الثقيلتين ، وترفع قدميها الحافيتين من على التراب ، فى غير اقتناع ، تهتز وتنثنى ، رازحة ، وهو يثب ويقع ، يؤدى شغله ؛ وجهها المتضرج المزوق فريسة للنور، بحواجبها الممسوحة المرسومة من جديد بخطوط سوداء ، وكحلها الثقيل ، مازال حول عينيها المفتوحتين الجامدتين فى غبش الاصطبل بقع متقطعة من السواد . وبقع الأحمر المستديرة على وجهها تلمع ، يا زمبلك، اوعى السوستة، شفاه مصبوغة لحيمة تحت النور القاسى ، بلون قان كالدم اليانع يتجاوز شفتيها المفتوحتين الى أطراف الفم الملوث ينضح الدم المتجمد ، ولغت فيه وشبعت ، وصدرها الضخم المترجرج يكاد يثب من بدلة الرقص الساتان الصفراء الفاقعة ، وهى تلف بذراعيها المدملكتين ، حول ظهرها ، طرحتها الشفافة السوداء المشغولة بالترتر الأحمر ، تخفى أطرافها الممزقة بين يديها ، وقد علق بها تراب أبيض باهت .

أصوات رشفات غليظة متلاحقة من ألواح البريمو

من أكواب الشاى الأسود الزارد وقرقرة ميــاه الجــوزة والصوت المبحوح يجأر فى قلب الغمــار فتح يا جــدع ودخان المعسل وهدير الكلام وضجيج السيرك والمــولد معا يكاد يغرق الموسيقى النائمــة المتباطئــة ، وصبى البوفيه يقرقع بملعقته فى كوب الشاى على الصينية . والعرق قد ســاح بالكحــل وســال بالبودرة على ثدييها وجوانب خصرها المتين ، يخط خطوطا خمرية لامعة على الجســـد المكتنز المبــذول للأعين والشفاه التى لا ترى ولا تجد فيه طعما .

وقد فرغ دورها وخرجت ، حافية ، قدماها تحتكان بالرمل والتراب ، دون أن ينتبه أحد ، والأضواء عــلى الحلبة انطفأت ، وجاء اليها وهى تنهج ، وما زالت عــلى وجهها ابتسامة دم منسى داكن ، ولف حولهــا الــروب الأحمر الرث ، دون تصــفيق ، فلم يســتعدها أحــد ، والناس فى عنفوان الليلة يقومون ويتحركون ويلغطون والجــوزة والقهــوة المضبوط والشــاى الكشرى تدور وتتلقفها الأيدى والشفاه فى الاستراحة بين الألعاب .

وأحس كتفيها تحت ذراعيه وهو يحيطها بالروب ، كأنه يحميها ، ضئيل وراء ضخامتها الســاكنة ، ملطخ مثلها لا أحد ينظر اليه ، وبينهما فهم مفــاجىء دفىء ، سرعان ما مضى ، ولم يتكلم أحد ، فهذا من ضمن الشغل ، عليه أن يلبسها الروب وهو يهرج ، لكنه الليلة صامت ، قد أهمل شغله ، ونظرت اليه نظرة واحــدة ، غــريق

يستغيث دون صوت ، من عينيها المدفونتين في الكحل ولحم الجفنين المترهل والتجاعيد المكتنزة الملوثة بالألوان الندية بالعرق الدهني ، ثم انطفأت النظرة وغاص الغريق ·

وهو الآن وراء الست أميرة في الاستراحة ، الاستراحة ليست له ، يدور ومعه صور باهتة الزرقة مطبوعة بالحبر بالحروف الثلث ، البهلوانة العالمية أميرة تروض سلطان الفرس العربي الأصيل ، وفي يدها طبلة ورق تهزه فتجلجل صناجاته الصغيرة وفي يدها الأخرى صينية يلقي الناس فيها بالقروش التي ترن والأوراق المطبقة أو المفرودة المغضنة يكاد يطير بها الهواء وابتسامتها متملكة آمرة كأنما تقتضي حقا وتتأدي دينا ، والمحافظ الجلدية الصفراء تخرج من العب معلقة بالدوبارة المتينة وتنفرد طية بعد طية ليستخرج منها الشلن الفضة أو القرش البرونز أو أم عشرة المطبقة أربع تطبيقات متوازنة ، وهو يسلم صورة ويهش الأولاد المتدافعين عليه ، وهي لا تكاد تنظر الى الفلاحين أو الأفندية ، بل تنتقل بخطا رشيقة، في المايوه الأبيض اللامع المطرز بالترتر ، وسط ركام الجلاليب والملاءات والقفاطين والبلاطي التيل الكالحة، ومن الناصحين من يقوم قبل أن تصل اليه ، ومنهم من يتشاغل في حرج وعيناه لا تستقران على شيء ·

وهي تستند الى ألواح الخشب وترتقي السلالم

المتأرجحة ، حتى وصلت الي العسكري الضخم المفتول .
والشرائط الحمر على كمه الأصفر ، يجلس في البريمو،
راكز الأركان ، متين المنكبين ، في عنفوان رجولة
مسيطرة وصولة لا يخافت بها ، وهو لا يكاد يلقي اليها
بنظرة ساخرة من علياء هيكله المحتشد بالقوة والغلواء ،
نظرة اعجاب صريحة فيها الدعوة والسخرية معا ، نظرة
ثور قوى وذكي أيضا ، يعرف استجابة أنثاه المحتومة .

درت حواليها استبقها كأنما أدعوها أن تمر ، فبما
في هذا البغل من جدوى . ولن يعطينا شيئا ، وقد
فارت نفسى وأجهشت واعتمل في صدرى الذعر واللجج
معا ، ولكنها تلمس كمه بيدها ، برقة ، وتهز الرق ،
وعندما استرقت النظر اليها رأيت التواء فمها بحركة
احتقار مدربة ، كبنات مصر ، حركة تحرش واستفزاز
واستجابة ، تستنفر وتتحدى ، وتعد بمجرد التحدى .

ومد يده البغل ببطء الى تحت الأزرار النحاسية
اللامعة واستخرج قطعة بشلن ، ورماها الى الصينية ،
فرمت هى اليه بعينيها ، وأحرقتنى العينان . لذعة لهيب
منبثقة بطول أحشائى وعرضها ، شريط كاو أحسست
جوفى يستشيط منه وتنسلخ منه مزعة متقدة بالنار .

وقالت له ، كبنات مصر ، بهمس : مرسى ، من
أعماق عينين مثقلتين مضطرمتين ، ومالت عليه ميلا
لا يكاد يحسه أحد ، وان كان فيه دفء غريب حميم ،
وهى التى لم تشكر أحدا غيره ، مهما أعطاها ، وطول

الليل اتقلب وأدور ، في حلقات من الظلام والجنون لا تنتهي ، ألف قطعة من نار مؤرثة الأوار لها حرقة لا تنطفيء ، ويهجس في نفسي ويوغر صدري ألف خاطر مجنون عقيم يتحطم امام صلابة صماء مسدودة ، وبكيت كالأطفال ، بحرقة بكاء الأطفال ، بلا أمل في ان أحدا سوف يفهم أبدا ، في استسلام كامل لنفضة الدموع ، ولم أخجل ، وفي أنفي وقلبي رائحة التراب الجاف . من أنا ؟ لا شيء . لا أحتكم من خير الدنيا على شيء . صحيح انني دائما مفتتح العينين ، لسن طلق اللسان ، صوتي في الجلبة مشروخ مبحوح ولكنه أعلى الأصوات ، ثم هأنا في الليل ، معدم ، عريان . يعوزني كل شيء . ولكن لا يعوزني أنني أحبها .

هذه ثروتي ، كنزي . لا شيء . عبيط وأبله . وحدي . ووحيد . أمام ثروات الخيل النابضة الجسيمة . وعظامي مكشوفة للهواء ، مفكوكة ، لا يربط بينها شيء . في مرة قالت لي : اشمعني مع البت عزيزة زمبلك بتشتغل بقلب ، ومعانا بتلف كده زي المسطول ، وبتشتغل من غير نفس ، بطل بقي وساخة يابن الكلب ، ووجدت نفسي أبتسم من ورائها وفي داخلي عربدة مكتومة من الفرح ، وحس سعيد ان عندي شيئا له قيمة تطلبه ، وتفتقده ، تظن انها تفتقده .

من هذا الذي يئن من أعماق أحشائه ، كأنه مضروب في قلبه بسكين ، ضربة الموت .

أنين غائر غريب ، فى الخواء . آنين لا يقصد به شىء . لا ينادى محبة ولا عطفا ، لا يريد يدا تمتد اليه أنين خافت ، خاص ، حميم ، بينه وبين نفسه ، عقيم ، يصدر من جوف الأرض ، من تحت طبقات لا نهاية لغورها .

أنين محبوس مكتوم لا يدعو شيئا ، لا يعرف شيئا . والموسيقى تضج حول كل شىء ، تهيىء الأرض لآخر لعبة . والولد الصغير يمدد جسمه على البساط ، والبهلوانات ، فى شبابهم وقوتهم ومرحهم ، يعابثون الولد ويجربون قوة احتماله ، فسوف تتكوم عليه أثقال البهلوانات جميعا ، ساقاه الرفيعتان وبطنه المتهافت سوف تطيق عبء كل هذه الأجسام الفتية بالحياة والعضلات .

أبو جلمبو صغير وبائس ورث ، خرج من الماء ، وسوف تقوم على صدفته الهشة أعمدة العظام المتوترة تعلو فى بناء يتهدد دائما بالسقوط ، والقوقعة الرخوة تستميت فى التمسك بالأرض ، وتعد نفسها لمئونة احتمال أثقال هذا البرج على القشرة الرقيقة القابلة ، فى كل لحظة ، للانكسار . ولكن أخته تثب فجأة من فوقه ، الى الحبل المشدود ، طفلة أنثى تتلوى على حافة الهاوية ، بملابسها العريانة الصغيرة ، فتائل الحبل وحدها ترفعها فى الهواء ، فى الضوء الفسيح ، وهى تنحنى ببطء ، وتميل ، وتثب فجأة فاذا هى نائمة

مشدودة على الحبل ، أعضاؤها المنهكة منبسطة ممددة الى آخر خدود الامتداد على الشريط المهتز الرفيع ، ثدياها البرعميان النابتان يرتفعان من منحدر الصدر النحيل ، نحو السماء .

وهى فى حركة تمددها على الحبل تتلوى ، وتلتصق ، وتتطلب ، كأنما تمتص من هـــذا الشريان الملفـوف عصارة البقاء ، تنزح عنه آخر استنفادات الحب والماء النزر الذى يظمــأ اليه عــودها الأخضر الخــام الغليظ الملمس ، ثم يدق الطبل دقاته المتلاحقـــة ، ويتقــاطر التصفيق فى غير حماسة ، فى تردد وانتظار .

ويعد المشــهد المضحك الأخــير ، وهو يسرع فجأة فيشد البساط الناصل القذر من تحت الــولد ، ويقفز الطفل فيعطيه صفعته المعتادة ، ثم يعود فيرتمى عــلى قاع الأرض ، ويعلو صخب الناس وعجيج الموسيقى ، والناس قد حميت دماؤهم من لغط المولد وسورة المعسل والشاى وامتلاء الفم بعجين الحمص وطعم الحلاة الحاد، بالسمسم والسودانى . وصرخات باعة الكبدة ولحمــة الراس والبمبار من وراء القماش ، كل واشبع واقرأ الفاتحة للسلطان .

دوى أمواج المولد المتلاطمة فى خارج خيمة السيرك، مع هيمنة حلقـــات الذكر المتمايلة ولهاثهــا ، ومزامير المواويل ودفوف المداحين التى نشطت ولجت بها نشــوة جامحة ، ورقصات الغوازى قد امتــلأت بهــا الأيــدى

والعيون ، وفاضت ، وهمهمة نيران المشاعل على عربات العرائس الملونة بأجنحتها الورقية المفضضة كفراشات مزوقة حجرية العينين ، مستديرة ببطونها اللامعة من السكر الأحمر ٠

ودقات البمب وخبطات العاب الحديد ، فى حميا آخر الليل التى تكاد تصل الى ذروتها ، ودوار الدخان قد اتصلت حلقته ٠ وسوف تنطفىء الأنوار قريبا والجذوات الملتهبة فى حلوق الفخار التى تفح بدخان المعسل ، وتهمد قرقرة المياه المحبوسة المضطربة ، وتخبو المشاعل على عربات الترمس والحمص والبلح ، وتغدو رمادا خشنا لا يحيا ٠ يقظة متوترة أخيرة تجتاح كل شىء ، انفعال متوهج ، وتطلب حميم قلق مشعوف الأصابع لا يقع على شىء ولا يمسك بشىء ٠ والولد الصغير يمهد لجسمه الناحل نومته المشدودة على الأرض، يحفر بصفحتى كتفيه مستقرا وطيدا للاثقال التى سوف تتركز عليهما ٠

ويتلمس الأرض تلمسا وثيقا مدعوكا ، يمنح منها معينا ضنينا من قوة مدفونة ، ويدفع نفسه ، متمددا ، متوترا ، مغروزا على التربة الصلبة التى سوف تصد عنه الانهيار ، وتتلقى وطأة البنيان المشيد المقام على عظمه ، فى الهواء ٠

والأجسام تتراكب فجأة فوق هذه القاعدة التى تبدو هشة رقيقة ، الصدور مبسوطة ممتلئة الأشرعة

تقاوم الزلزال ، واندفاعة الحياة صاعدة نحو السماء ، يهددها خطر لا ينزاح ٠

تطوع استحالة ، وتتفطن أمامها النفس جزعا ٠ ودق الطبـــول ينصب الآن فى انهمــار حاد سريــع ، والسيقان والأذرع الأنثـــوية تمتد متقبضـــة مفتــولة وناعمة وعضلة بين خشـــونة هيـــاكل الرجال وعظامهم الوثيقة ، الأعضاء كلهـــا متلامســـة فى نقط محســـوبة متماسكة ، تمتـــد ، وتســـتمد توازنها من قشرة رفيعة متوترة ملتصقة بالأرض ، تصعد أنفاسا لاهثة محكومة ، تنمو منها سيقان وأذرع وأطراف مهتزة ممدودة متخلعة مزعزعة وثابتة معا ، كحيـــوان واحـــد نابض قد تخلق فجأة ، فى لحظة واحدة ٠

ويقوم منتصرا ، فى الهواء ٠ لحظة واحدة ، من الرشاقة ، والخفة ، والاكتمال ٠ مجرد لحظة هاربة ، من الثبات المتطاير الهفهاف ، يحلق منتصبا ، ناهضـــا على أعمدته الهشة القوام الراسية الجذوع ٠ ريش نسر واحد مبسوط الجنـــاحين ، يقف ، مشـــدودا فى أعالى أطباق السماء ٠

ثـــم يتضعضـــع ، ويتقلقل ، من علوه ، وتتخلع أوصاله ، وينهضم ٠ وينهار متهاويا فى زلزلة انقلابات متفجرة وشظايا مفتتة تستدير فى كل ناحية كأنها قطع مكسورة منفلتة من آلة هشة انسف محورها وانحطم ، والطبول تصرخ صرختها النهـــائية مع صـــفقة النحاس

المدوية المرتعشة الأخيرة ، وهو يتقلب على جنبه ، وجهها ينحنى عليه ، مضرجا لامعا من العرق ، مشرقا باهــرا كقرص الشمس ، عين لا تعرفه ، وجه لا صلة له به ، صامتا فى بهرة الوحشة المتوهجة ، لا رســالة فيــه ، لا يقول شيئا • دهمه الوجه ، فى لحظة خارج الزمن ، وأمسك به • حبه القديم يعصر قلبــه حتى الجفــاف ولا ينتهى أبدا تقطره •

تدلى وجهه المعفر الملطخ بالأبيض والأحمر نحــو التراب ، كرأس معلقة أمام دكان من دكاكين الجزارين ، ساقطة الى أسفل ، مرشــوقة بخطاف حــديدى أســود ، مفتوحة العينين • وجه غاض منه كل نداء ، لم ينفتح على حرارة ما • وقد طويت عظامه الرقيقة ، مهدودة ، على نفسها • ليست بحاجة الى شىء • وهم يدخلونه الى الاصطبل ، الى دفء الظلمة ، والى الحنايا الوثيرة من عجين الأرض الغنية ، وينفضون من حوله ، وأصــوات صغيرة تتنادى، بحثا عن نجدة لا جدوى فيها، لن تجىء •

القــاهرة

٥ مايو ١٩٦٧

آخر السكة

حس الرمل تحت قدميه • هش ، طرى ، به بلل من المطر الذى ظل يسح هينا طوال بعد الظهر • والى جانبه يرتفع سد من الأحجار البيضاء الضخمة ، تلوح رمادية مفتتة السطح، من ورائها أغصان أثيثة داكنة • وقطرات ثقيلة من الماء تسقط ، من الشجر المتكاثف المشبع بالرطوبة ، على الحجر ، وعلى رمل الطريق الضيقة ، لها وزن أصم يتبدد بصمت ، فى عتمة المساء • لا يخفف منه هواء البحر الذى يكتسح البيوت فى هبات مفاجئة ، به طعم الملح • وهو يرفع ياقة معطفه الجبردين على مؤخرة عنقه ، يحس تحت شعره دسامة العرق القديم ونديى البلولة الجديد ، يحتمى من هجمة الهواء ، وسقطات القطرات المشبعة من على الأوراق المعتمة الخضرة •

والطريق تنحدر بسرعة • وتنفجر خبطة مصراع نافذة على حائط ، فى السكون ، بفرقعة • فيرفع عينيه الى أنوار خافتة تتخايل وراء الزجاج المغبش فى النوافذ الصغيرة العالية وتكشف عن متاع الحياة اليومية الرث

فى الغرف المكظوظة الموحشة بمقدم الليل : داير السرير الدانتلا الأبيض الكابى ، على قضبان حديدية سوداء رقيقة معوجة ، صور باهتة من مجلات ، مثبتة على بياض الحيطان ، مصباح عريان عشرين شمعة مدلى من السقف بسلك رفيع ساقط باستسلام ، دواليب مائلة بالحقائب والكراكيب ·

وحركة جسمه المنحنى الى الأمام تتزايد قوة واندفاعا بانحدار الطريق الى سلالم المحطة ، وكأنما استراح من مضضه باقتراب أنوار كوخ المحطة الخشبى، يحيط به افريزه المشبك على نسق أرابيسك مبسط ، يشع النور من خرومه الهندسية · وهو يراه من فوق ، والقرميد الطوبى اللون يلمع من البلل وتتعلق بأطرافه دانتلا أخرى ثقيلة من قطرات ماء تتشبث بحافته لا تريد السقوط ، بعناد واهن ولكن لا ينهزم ·

وهو ينحدر على السلالم العريضة ، المغطاة بالرمل، الى رصيف المحطة ، أخيرا · والقهوة القريبة على الرصيف مغلقة الزجاج ، دافئة من الداخل ، كثيفة ببخار الأنفاس والدخان · وخطوط الترام تمتد سوداء ، متألقة بقوة خاصة فيها ، بطاقة كامنة نائمة ولكن متحفزة ، تنتظر العجلات المدوية المفرقعة لتنبثق منها دفعات الانطلاق الى عالم آخر جياش ، مزدحم ، مفتوح ومنير ·

تأخر الترام .

وليس على الرصيف أحد غيره فى هذه المحطة التى تشتعل أنوارها له وحده ، وقد أوى الى الركن الخشبى الذى تفوح منه رائحة عطن قديم ابتعثته الرطوبة وهواء الليل . وجفاف الرصيف الصلب تحت سقف المحطة يرضى حس قدميه تحت جلد الحذاء المبلل . وليس في الجو برودة ، بل شتوية أكتوبر ونعومة سماء المساء المبكر ، العذرى ، مازال منيرا بوهج محمر توشيه دكنة السحب الجهمة المقطعة التى يجرى بها الهواء سريعا صامتا فى مدار آخر . ونجمة وحيدة مشعة تجرى مع السحب ، تبدو وتختفى ، تنسرب فى بهجة حميمة مغلق عليها .

وأخيرا جاءت القرقعة البعيدة التى تؤذن بمقدم الترام ، يقترب بسرعة مليئة بشحنة مكتومة ، والنور البنفسجى الكابى فى مقدمته يتألق ويكبر ، والكتلة العلوية الضخمة فوقه كأنها آتية قبله ، مطلة من فوق ، مسدودة ، تنذر بتهديد غير مبرر ، والأنوار من نوافذه تتحرك على جانبيه بسرعة على رمل السكة ، وتتعاقب على جانبى الطريق المتحدرين تحت حيطان البيوت وأشجارها .

واقترب الترام ، بضجيجه ونوره ، فى أول المساء ، بما يحمل من وعد متفجر . لكنه لم يتحرك ، كأن ارادة أخرى تفرض عليه وقفته الجامدة فى المحطة . وغض

الترام من اندفاعه ، وعبرت به قامة السائق وهو يدير عجلته فيوقف القرقعة ويحيلها الى دقات معدنية تصلصل وتتتابع فى بطء ، ثم الى هدير آخير ، ونشيش يهبط الى زفير نهائى مرتاح ، وينفثىء الى صدمة الانقطاع ، والتوقف الكامل ، وسكتة لحظة الصمت • والهدوء تنبعث فيه فجأة أصداء القهوة وحفيف ورق الشجر فى السكون الفسيح •

ومن السلالم الى الرصيف ، نازلة بسرعة ، تندفع رشيقة ، خفيفة ، الى سلم الترام تتعلق به لترقاه بخفة • والهواء يطير بجانب سترة البلوفر الملقى على الكتف المدورة ، الرخصة المليئة ، ويدها ، بحقيبتها الصغيرة ، تمسك بالجانب الآخر من البلوفر تضمه الى ما تحت صدرها • ونور الترام يشعل شعرها السبط البنى المتوهج المتناثرة منه خصلة طائرة على جانب الوجه الأبيض الغامض المعالم •

نعمات ، جاءت فى اللحظة الأخيرة •

وانفك على الفور توتر مقبض كان يثقل دماءه ، ووجد نفسه ، دون أن يدرى ، على سلم الترام ، معلقا بالحاجز الخشبى الأملس الزلق ، قدمه على الحديد الاسود اللامع ، وقدمه الأخرى فوق ، على خشب الترام، يكاد يحيط بها بذراعه ، قريبا منه نفح ملابسها وجسمها • هذا العبق الحميم الخاص الذى لا يكاد يتميز فيه رائحة ما ، ولكنه هناك ، فيه نفس ودفء يعرفه

معرفة وثيقة مباشرة ، يتغلغل فيه ، كأنما هو ينتظره في كل مسامه الداخلية البعيدة :

ويمد يده فيفتح لها باب الترام الزجاجي ، وتدخل بحركة تلقائية دون أن تستدير اليه ، ومازالت تنهج من سرعة اندفاعها لتلحق بالترام ، ولكن شيئا ما يدفعها الى النظر وراءها : يده الممدودة على الباب ، توتر جسه بها ، البهجة العارمة المكتومة بها دماؤه داخل أسوار الجسم ، ترحيبه الصامت باللقيا بعد جمود الانتظار ، شيء ما دفعها للالتفات بسرعة . صدمة المفاجأة ، وانفتاح التعرف ، وبهجة الانتصار السريع باللحاق بما كانت تجرى وراءه ، والعثور عليه في وقت معا ، والامتنان للمجاملة اذ ينفتح لها الباب ، لعل ذلك كله ، وغيره ، قد نزع قناع الوحدة عن وجهها اليانع الحلو ، وأزاح صلابة الصمت والانعزال ، فتنهمر ملامحها كلها في ابتسامة المفاجأة والفرح ، وتستضيء ، وتسطع باشراق جديد ، كأنها وجه جديد :

ـ الله .. شوقي .. انت هنا ؟ كنت فاكرة نفسي متأخرة .

ـ طيب نقول مساء الخير .. السلام عليكم .. بونسوار أولا .. !

ضحكتها المرحة ، فيها الفة قديمة ، خافتة وغضة وأنثوية ، وفيها لمسة من شقاوة ومعابثة :

ـ مســاء الخــير يا سيدى • الســلام عليكم ••
بونسوار أولا •• آمرك •

يهمس ، حتى لا يسمعها الركاب الآخــرون الذين يثبتون عليهما نظراتهم المستطلعة ، الجهمة ، كأن فيها منــذ الآن تقريعــا وتأنيبــا وادانة ، وهما يشــقان طريقهما ، وهو يصطدم ، مع تأرجح الترام ، بالقوائم الحديدية اللامعة فى الممر الضيق ، حتى يصلا الى الجلد البنى الداكن ، تحت زجاج نافذة مازالت تهمى عليه قطرات متسايلة صافية ، من الخارج •

وجلس الى جانبها ، فى حرج طفيف من الاستقرار والاستعداد للرحلة القصــيرة ، تحت أنظار النــاس • والكمســارى يتجه اليهما ، كأنهما هــدف ، وعليهما ـ عليه هو على الأخص ـ أن يتخلص من اســار هــذا القصد ، هذه النية التى تحيط بهما • فيدفع للكمسارى الثمن ، وتخرج هى بطاقة اشتراكها بصمت من حقيبتها ، يقف الترام ، وتنطلق الصفارة ، وتقرقع العجــلات ، وينطلق الحديد والكهرباء فى زفيف عــلى خط الرمل الطويل ، فى غبشة المساء المتزايدة ، ولا يركب أحد ، فتنفرج دائرة الحرج والضيق ، ويخف ضغطها • ويحتدم حســه ، مع هزات الترام الرتيبــة ووقفاته واندفاعاته المتلاحقة ، بوجودها الى جانبه ، قريبــة جــدا • جانب معطفه يمس ساقها المسحوبة الرشيقة ، وهو دفآن فى حسه بها ، على الجلد القديم الوثير ، ذراعه المتوترة فى

كن جاكتتها الملقاة على كتفها ناعمة الصوف نعومة جزء من جسمها ، صـدرها يثقـل البلوفر الخفيف الطـرى بلدونة خصبة لا يكاد يتضح معها الحز الداخلى المستدير، وهى تهز رأسها وتفتح حقيبتها لتمرر المشط بسرعة وخفة فى شعرها الاثيث وتلتفت اليـه بنظرة مسترقة مخطوفة كأنما تدعوه أن يتكلم ٠

ولا كلام عنده ، فى زحمة الضجيج الذى يمـور بداخله بلا لغة ٠

عيناها ، عينـاها الغريبتان ، نافذتان عـلى عالم أجنبى ، بلونهما الأصـفر الصـافى ، مترقرقتـان ، واسـعتان ، قطـرتان من ماء أجاج على زجاج لامع ، والخط الاسود الرقيق على الحافتين ، والظل الاسـود الخفيف على الجفنين ٠

ماذا تقول العينان ؟

ـ عندك الليلة شغل كتير ؟

تريده أن يتكلم ، لكنها لا تقول شيئا ٠

ـ أبدا ، تلات أربع ورقات تحاليل ، أخلص منها وأروح للمحامى ، بعد اذن سيادة الدكتور ٠

ـ لكن سيادة الدكتور مش جاى الليلة ، أو يمكن ييجى متأخر ٠

ـ بركه يا جامع ٠ أهـرب نص سـاعة وأرجع ٠

ولا من شاف ولا من درى • انت سمعت خاجة ؟ عرفت حاجة ؟

ـ بس بقى •• مش ختبطل تزويغ •

هل هى تعــرف شــيئا ؟ هل سمعت أحاديثهما فى التليفون ؟ وهــل ســمعت أحاديث النــاس ولغطهم ؟ بلا شك • نعم ، انه لم يقل لها شيئا صراحة • وهو قد خلع الخاتم من زمان • منذ أن انجابت نشــوات الأيام الأولى ، واضطراباتها ، ودفقات جنونها ؛ وهى تعرف انه يعيش وحده مع أمه وأخواته ، بل تعــرف أيضــا بيتهم من بعيد • لكنها تمسك أيضا بيدها كل الخيوط ، ولا شك انها عرفت قصة زواجه ونزاعه وانفصــاله ، وهى على التليفون تستطيع اذا أرادت أن تسمعه يطلب المحامى ويناقشه ، ويتفق مع الوكيل عــلى المــواعيد والاجراءات ، وتستطيع أن تستخلص لنفسها الحــكاية كلها • ومرة واحدة سمعتها مباشرة عنــدما طلبته من الخارج ــ على انه قد حذرها الاتصال به على أى نحو ــ وصوتها الانثوى الخشن العنيف • وعاكسته يومها ، فى معاتبة تبدو بريئة كل البراءة ، لكنه لا يعرف ان كانت محملة بالتضمينات والتلميحات ، حــولت اليــه الخط ، وبعد أن أنهى مكالمته الصاخبة :

ــ الله الله ياسى شــوقى ، مكالمات خصــوصية فى الشغل ؟

هل استرقت السمع يومها ، من عــلى مكتبهــا من

وراء الحاجز الزجاجي ؟ كانت العيادة مزدحمة بأصحاب التحاليل ، غائصين على مقاعدهم العتيقة المشققة الجلد في المدخل المعتم المترب المرتفع السقف • وبعد انتهاء المكالمة خرج وفي يده ورقة متعللا بأنه يبحث عن التمرجي ليعطيها له ، كأنما هي ورقة مهمة بنوع خاص • وكان الدكتور في المعمل أمام أنابيبه العكرة ومواقده التي تئز بنار محددة كاشفة ، وقواريره المليئة بالسوائل الكثيفة والصافية • ونظرت اليه من وراء الزجاج ، وهي ترد على التليفون ، نظرة غائبة ، ورفعت الخط وأوصلت الفيشة بحركتها التقليدية الكفء السريعة ، حركة بنت تعرف شغلها وتجيده وتنفذه بفعالية تامة ولو كانت مغمضة العينين ، ليست هناك • ولكن هذه النظرة البعيدة ، ونور الصبح ينعكس من النافذة الجانبية على العينين الصافيتين ، الخاويتين، في هذا الاتساع الأصفر الموحش الذي لا يطرف •• هل سمعت ؟ التوسلات، والتهديدات ، والدموع، والاستنجاد بالذكريات ، وابتعاثات حنان ضائع ، والتعدلات ، وبكاء ندم لا يعرف ولن يستطيع أبدا أن يعرف ان كان حقيقيا أم مرتجلا من وحي اللحظة ــ فهو حار وموجع ولكنه أيضا قلب وختل ، هذا يعرفه •• وعليه أن يسد قلبه أمامه ، والا فلا نجاة • وألجأته في النهاية أن يقفل السكة ، بعنف ، واحتدام مكتوم • فهل سمعت الحكاية كلها ؟ حكاية توجع القلب • ولكنه سيخلص منها قريبا • وأحس آهة الكمد بعد أن أفلتت منه •

لا بأس ، المحكمة سوف تحدد لها النفقة ، وينتهى ، ينتهى • وقد أعطاها كل شىء ، أثاثها الذى اشتراه هو بسهر الليالى وألم الكتفين وانكسار الظهر وزيغ العينين من الدق على الآلة حتى الصبح ، شهرا بعد شهر ، بلا نهاية • و « ورقة الضد » على نفسه حتى تأمن على نفسها ، وصورها أيضا وخطاباتها الساذجة من أيام الغزل الأولى القديمة الغارقة فى القدم ، كل شىء ، فساتينها وملابسها وقمصان نومها : قشور النايلون الملونة التى طالما أماطها عن ثمرات دب اليها العطب فلم يعد فيها الا لحم مهدل نضبت عنه سلافة المحبة والتواصل • كل شىء أخذته معها ، وأخذت معها جذاذة ضخمة مزعتها أيضا من حر نفسه ومن أطيب أجزاء عمره ، اتندمل قط هذه الفجوة الغائرة فى لحمه ويرم الجرح الذى نغل وضرب ؟ أيجف أبدا قطر المرارة والصديد والدم المتخثر بالعراك والمشاحنات ؟ وما الجدوى الآن ؟ سممت أيامه ، وطينت بالوحل عيشته ، نعم ، وعليه الآن أن يظل يدفع الثمن ، ثمن شهوته وشفقته ، وجنونه وتمرده ، ومتعته المعجونة بالجسد الملوث الوثير • وقد دفع ، دفع ، فهل يخلص أبدا ؟

ـ ايه ده كله ؟ اللى واخد عقلك يتهنى به •• وصلت لحد فين ؟

لن يعرف أبدا ماذا تقصد بهذه الكلمات ، وما يشبهها • دائما تنكشه ، وتخزه ، بلهجتها التى تبدو

مجردة مستقيمة عارية من كل كثافة ولكنها تحمل ثقلا ·
لن يعرف أبدا ما رسالة هذه النظرات ، هذه الضمة
للشفتين الرقيقتين الرفيعتين تغلقهما على كلمة لم تتخلق
بعد ، أو لا تريدها أن تتخلق ، لا تريدها أن تتخذ
لنفسها صوتا يعطيها القالب والنهائية فيستطيع أن
يواجهها ، أن يتعامل معها ، أن يمسك بها · ولكن اهذه
الكلمة هناك ؟ أم هى وهم فى ظنه وحده ·

وفى سؤالها نبرة حنو لا يمكن أن يكون متوهما ،
جرس طيب أموى يبره وينحنى عليه مهما كان فيه من
دعابة ومعابثة · واصطدمت يدها الى جانبه بيده ·
بعفوية ؟ صدفة ؟ لا يعرف · لا يعرف · لكنه يحس
هذه اللمسة التى طالت قليلا ــ لحظة واحدة أكثر مما
قد يكون عاديا وتلقائيا وعفويا ــ لمسة يدها بيده من
على « الجيب » الصوفى الثقيل الوبرى ، من على
الاستدارة المليئة · هل فيها ضغطة خفيفة مقصودة
مرت كاللمحة ، واختفت ؟ أم ليس فيها شىء ؟ ما معنى
هذه الاصطدامات العذبة التى ما تفتأ تتكرر ؟ هذه
اللمسات التى تجىء ــ دائما ــ كأنما عن غير قصد ؟
من الأصابع الرقيقة المرهفة العظم ، فى زحمة النهار ،
والعمل ، والمواصلات · مرة عندما يعطيها ورقة تحليل،
كأنه يهبها شيئا ثمينا وكأنها تتلقى الهبة · وعند
صعود السلالم ، صدمة اليد باليد على ثنية البطن
الطرية ، خطفة زمن هاربة ، على مشارف عالم ملىء
بوعود نشوة مصفاة · وحس النهد الطيع على ذراعه

عند المرور فى طرقة ضيقة ، لمسة لا تكاد تحس لكنها خصيبة ، ووثيرة . عابرة ولكن كأنها لا تحدث فى الزمن ، ونظرة معها فيها دهشة وسؤال ورضا وعمق لا يسبر غوره .. ما الكلمة التى لا تريد أن تنطلق ؟ ما الرسالة التى لا ينفك رمزها ؟ أهناك كلمة ورسالة ؟ نعم ، نعم ، كلمة مركبة ، ومعقدة . أين المعمل الذى يحللها فيه ، وأنبوبة الاختبار الدقيقة المستطيلة التى تستدير ببطء على لهب « بنسون » يلعق زجاجها ويرسب أملاحها ومعادنها من تحت المياه الصافية الخادعة ؟

والترام يمضى فى عشوة الليل الزاحف ، مندفعا بزفيفه وجلجلته ، بقوته الخاصة المتفجرة ، مغلقا على نفسه ، يشق طريقه على القضبان الحديدية القابضه ، مشحونا بطاقة عنيدة عمياء ، يخترق السواد المجهول الحالك . والأنوار من نوافذه الجانبية تجرى معه ترتفع وتنخفض وتستدير ، تلاحقه وتنتصب فجأة على جدران الرمل المتصلب القائم على الجانبين ، فى أكمات قريبة مهددة ، مشققة بخدود أفقية متعرجة خطتها مياه الأمطار وسفعات الريح عبر آزمان سحيقة ، وتنبثق من الرمال بحبوبها وكراتها وخطوطها ، حرشات صغيرة خضراء خشنة تسطع فى النور بلون وحشى وتختفى بأوراقها الكثة الداكنة . وتنهار سدود الرمل وتتراجع من على السكة لينفسح الليل عن براح مفتوح معتم ، البحر بحضوره الغامض على مقربة ، أنفاسه الرطبة بملوحتها المبلولة تهب على صهاريج البترول : ضخمة ،

مستديرة تلمع بألق معدنى باهت البياض ، جاثمة تحت سماء قاتمة ، أثداء هائلة راسخة على ضلوع الأرض ، كاملة الاستدارة ، صلبة ، تختزن العصارة المعدنية التى تغتذى منها المدينة وتدر لبنهـا الحـريف الرقراق فى الشرايين الظمأى الى الطاقة والقوة العمياء ، ينطلق منها ألف حريق صغير مجنون محصـور ، كل لحسـابه وفى طريقـه المرسـوم ، عـلى مسـارات التوفز والتـوقف والانطلاق ، كل فى حدوده ، ترقبه عيون ساطعة حمراء وصفراء وخضراء ، تشق جسدالليل بألف جرح محسوب، متفجرة كلهـا بالصراخ فى ظلمـة المدينـة ، شرارات تتوهج وتنطفىء ، تتناثر منبثقة من مسـام الجسـد ٠ ومياه ذهنه ثقيلة برواسب مرة الطعم ، ملحية يمجهـا اللسان ٠ لماذا الترام يختط هذا الطريق ؟ أهذه شوتس ٠٠ المكس ٠٠ العصافرة ٠٠ العامرية ٠٠ القبـارى ؟ هذه بلدته ، هذه الاسكندرية ، وخطوطها مرسومة على قلبه ٠٠ لكنه الآن لا يعرف أين هو منها ٠٠ ورائحـة المدابغ الثقيلة الهاجعة تسطع ، ثاقبة تنفذ اليـه من شـباك مفتوح ، جفـاف صحراوى محمـل بعبق نتن لا يطاق ٠ سـحابة ليليـة تهب به من نفـاية افرازات الحياة ، الجلود المشبوحة العفنة تنسـلخ من حيـاة الى حياة ، عبر محنة الموت والمجزرة ، وخباثة الزفر ، مزقا دقيقة ماكرة الصنعة منمنمـة ملسـاء تحيط بالاقدام الصغيرة النضرة ، وتودع فيها الأسرار الصغيرة الأثيرة ، ومفاتيح الملاقات بين أيادى الناس ، والرموز المخططة

الصامتة بكل لغة ، جلود الحياة المتفجرة الخشنة القديمة تغدو جلودا أخرى مصقولة ملفوفة حول حيوات أخرى مكتومة تجرى فى مساراتها ٠

ـ أبدا ٠٠ ما وصلتش ولا حاجة ٠٠ كنت سرحان شوية كده ٠٠ تعرفى امبارح مانمتش لغاية الساعة أربعة الصبح ٠

ـ يا خبر ٠٠ ليه ؟ خير ؟ كنت عيان واللا ايه ؟

ثم استدركت ، ولمعت عيناها بنورهما الأصفر :

ـ واللا العيار تقل عليك ؟ كنت فى سهرة لازم ٠٠ فى لوم واتهام ٠

واحتدمت ثورة صغيرة محبطة فى داخله ، وحلف لها ، وصدق هو نفسه حلفانه ، ومر القسم والتصديق مرور غاشية تعكر ثقل صفو ما ، صفو رازح الركود لكنه مستقر ٠ وجدت فى غرفتى كتابا قديما بلا غلاف، من مهملات البيت ، فى ركن الدولاب ٠ كله حكايات غريبة ، تلك التى يسمونها خرافات ٠ حروب قديمة من أيام الرومان أو اليونان أو مثل هؤلاء الناس ، من أيام الاسكندر والفرس ، وأسماء أخرى لا أذكرها الآن ٠٠ عن عاشق ينظر الى الماء ويتحول الى زهرة نرجس ، عن بنت تصبح شجرة ٠٠ والله ما كنت نائما ، لكنى لم أكن مستيقظا أيضا ٠ لم أكن أحلم ، ولكن لم أكن أستطيع حراكا ، مهيض العزم ، متجمدا ، حالة عجيبة ،

لا ، لا ، لم أكن قد شربت شيئا والله العظيم • صحيح • كانت هناك واحدة ، كالغولة فى الحواديت التى كنا نسمعها ونحن أطفال • تنظر الى الناس ، والحيوانات ، فتصبح كلها ، فى نظراتها ، حجرا •• والأشجار ، وكل شىء ، أحجارَ جامدة • كل ما تنظر اليه • لا يستطيع حراكا • والعرق يتفصد منى ، حتى النفس ما عدت أحس به ، ولكننى كنت مفتح العينين ، وكان فى الغرفة نور ، لم أكن أحلم ، لكننى لم أكن أتحرك ، ولا أريد أن أتحرك •• ياه •• لم يكن الليل يريد أن ينجاب •• أبدا ــ يا شيخ ، لابد انك كنت تحلم ــ أبدا ، أنا متأكد •• هل كنت أحلم ؟ أبدا •• هل هناك ما يحول بينى وبين الحلم ؟ الشىء الوحيد الذى لا رقابة لأحد عليه ، لا أحد يتحكم فيه، لا شأن لأحد به • كنت أنت يا نعمات ليلتها أمامى ، راكعة على الأرض ، ينسدل عليك قميص نوم أبيض ناعم النسيج ، قميص سابغ ينزل من على كتفيك بانفساح ، الى الأرض ، تخفى وراءه جسدك كله ، حتى ذراعيك يحيط بهما كم لصيق ، حتى الرسغين، وكان ثم صوت تدفق للمياه ، تهضب وتتسلسل فى خرير مستمر تحت الأرض ، كأنه فى غرفة سفلية ، فى الدور الأرضى من البيت • حنفية مفتوحة منصبة فى مجرى ما ، فى الغرفة ، كما ينصب ماء المطر على جوانب الشارع ، ولكن الشارع هنا يجرى فى الدور الأرضى من البيت ، بين الحيطان ، فى الليل ، لا يهتم به أحد • ورفعت الى وجهك يا نعمات ، فى العتمة ،

مشرقا ، أبيض • وقبلتك • شفتك العلوية الرقيقة انفتحت تحت فمي ، والشفة التحتية المكتنزة ، داكنة الحمرة ، في ضمة ريانة ناعمة الملمس ، ويدى حول عنقك الباتعة ، المدورة تحت الشعر الهش الأثيث ، زهرة رائعة منبثقة من الأرض • وأنا أمص الرحيق ، بشفة مكهربة ، كل الرقة وكل المحبة • كل العزاء ، وتيقظت أرتجف •• وفى قلبى رقعة فسيحة من رضا شامل ، مرتاح ، ما ان استيقظت حتى أخذ يتحيف من أطرافها قلق متوفز ، لاسع الأسنان • كأننى اجترحت اثما ما ، لا أفهمه • نعم ، هذا هو الحلم • لكن قلبى دباه وداراه وتحوط عليه ، كأنه لقيا يطمع فيها كل قلب • ماذا بقى منه الآن ؟ خيط واه رفيع يتموج فى قلب مياه ضحلة ، لا لون فيها ولا كثافة • لكننى بالأمس، لا ، لم أكن أحلم والله ، أبدا ، كنت مفتح العينين ، فى الصبح وجدت نور الغرفة مضاء •• الله •• أما كلام فارغ صحيح • أنا عارف ما هذه الكتب ؟ بلا غلاف ، ولا عنوان حتى • ولكنها مؤثرة ، تدير الرأس ، كتب الناس القدامى هذه • لابد انه كان من كتب أبى • الله يرحمه •• أمنا الغولة ، نظرتها تحول الناس الى حجر •• !

وضحك • كانت عيناه جامدتين ، لا ضحك فيهما •

ـ ايه •• وصلت لحد فين ؟

التفت اليها • وصلنا • وضحك ، بسهولة فيها

توتر خفيف ، وهي تبتسم ، عن أسنان غير مستوية فيها شتت محبب منفرج ، عن رضاب لامع ــ لا حد لعذوبته ، يعرف سكره ــ ابتسامة حلوة وغامضة وجذابة • وكانت عيناه تضحكان • كانت بيوت الأزاريطة العالية قد تراجعت ، ومبنى هيئة الصحة العالمية بأعمدته الرومانية الجديدة ، وسلالمه العريضة ، ومئذنة جامع القائد ابراهيم العالية ، وأشجار النخيل الهندى في الحديقة • واهتز الترام وهو ينحرف بسرعة في تفريعة خط المحطة ، فألقى اندفاعه به بازاء جسمها ، الكى يستقر عليه لحظة ، في تماس حميم صلب • ثم انطلق نحو وقفته الأخيرة في الضوء والحركة وزحمة أول الليل • واضطراب الناس يهجرون القوقعة الدفيئة المضيئة بنور لدن ينصب بسهولة من مصابيح مستديرة هادئة ، كاللبن الدسم ، على الخشب الأكاجو الأصفر الداكن ، على الجلد البنى الطيع الغنى القتامة • وفى احتكاك الأقدام ابطىء فى طرقة الخروج الضيقة ، والناس يدفعونه من الخلف . مد يده يسند ظهرها أمامه ، وأصابعه تستقر لحظة على صفحة الكتف العريضة ، تلقى مقاومة العظام الرقيقة المغلفة بالليونة الناعمة ، ويحس تحتها بالشريط المشدود على الظهر من وراء الصوف المنسدل المحبوك • ويتفجر مجد المساء الأحمر فى انفساخ السماء على الميناء الشرقية ، وقد عمق الشفق وازداد كثافة وخصبا ، السحب المشتعلة أطرافها بنار لا لهب فيها ،

والبنفسج الداكن يتحيف أطراف النار المنهزمة • وهبة من هواء شات بليل على العرق الخفيف على وجهه ، وهما يسرعان ، ويلمان أطراف المعطف والجاكتة حول الرقبة والوجه ، وينشقان مع ذلك نسمة تملأ الصدر ، وهو يمسك بذراعها يعرف مرة أخرى ملاسة استدارته المكشوفة من تحت صوف « التوينز » الناعم ، عاريا تحت الكم القصير للبلوفر ، وحركته حميمة مختفية عن الأنظار ، يساعدها أثناء المرور من أمام العسكرى الممدود الذراع تتطاير الريح بالكاب الأسود القصير على كتفيه •

وهما يدخلان قوقعة زجاجية أخرى منيرة بنور مترب مراق على خشب مشقق عتيق • والمصعد يئز فى طاقته الكهربية المشدودة •

كانت هى التى فتحت له الباب ، بعد ان وقفت زنزانة المصعد الحديدى ، فى طرقة بيتها الرثة ، أمام جدار أصفر باهت مسدود يتساقط طلاؤه فى بقع مبيضة حائلة ، والباب الهش قشرة مهتزة واهنة القوى ، وهى تنحنى بعصبية الترحيب ، بابتسامة صادقة ، بأهلا وسهلا ، لتنحي أحد اخوتها الصغار من الباب ، وقد جروا جميعا ليلبوا دقة الجرس ــ الذى كان قد بحث عنه ، بحيرة ، بعض الوقت ــ يتزاحمون بين ساقيها وحواليها • وكان حر أغسطس رطبا ، وهواء الطرقة مكتوما • ونفثات من روائح أكل بعد الظهر ونوم

القيلولة مازالت معلقــة بالحيطان والأبـواب ودرجات السلم المعتمة غير النظيفة .. يوه . اوعى كده يانبيل . استنى يا تونى . مش عيب يا بابا عيب ، وهى منحنية تزيح الولد العفريت الذى يجرى بين الرجلين، وتستقيم فورا ، فيعود انهمار صدرها الصغير بثمرتيه الناعمتين العاريتين ــ وقد سطع لعينيه ، لحظة ، طربا ، يهتز ، فى انحنائها ــ ويتخذ مكانه الآن فى مستقره من فتحة البلوزة الخفيفة الواســعة الجابونيز . وعظام وجههـا الأبيض تتحدد فى عتمة الباب والنــور من ورائهــا . ويفاجئه شريط أحمر عريض معقود على الشعر البنى المسترسل الهش الململمس ، القاتم الآن فى انعكاس النور من خلفها ، خيوط نباتية كثة دمثة ، وتضع يدها لحظة فى يده ، وتضمها على أصابعه ، رخوة ، دقيقة ، عصفور صغير ملموم ناعم الريش ، وتشده بأهون حركة وأرقها الى داخل الفسحة ، وتسبقه، وصيحات الأولاد يتقهقرون متواثبين الى المواقع الداخلية الحصينة وهم يتصايحون : ماما أبيه شوقى اللى بيشـــتغل مــع أبله نعمات . ماما عندنا ضيوف .. ماما .. ماما .. يوه طيب يا ولاد أهلا وسهلا . وحركة القيام من عــلى مراتب الكنبــة المريحة من أغوار المواقع الخفية لأداء واجب الترحيب فى سهولة وطيب قلب .

وأخذت طقوس الترحيب مجراها المعتاد . فى غرفة الصالون الضيقة ، شهودها قطع الأثاث القديم والصور الزاعقة الألوان والمخدات السوداء المرســومة بالنخيــل

والجمال من ليبيا ، وشمس الظهر الحامية من وراء الستارة الكريتون المنقوشة بالورد الملون ، وهو يتحدث الى الأم عن حكاية الشهادة التى تريد استخراجها من البلدية ، ويأخذ منها أوراقا مطبقة مصفرة رقيقة الأطراف فيها عطن حائل لا يكاد يحس من طول بقائها فى الظرف القديم بلا شك ، تحت الملابس فى الدرج العلوى من دولاب أو بوريه أو تحت مرتبة السرير ، والخيرة فيما اختاره الله يا ضناى ، نعمات والله بتشكر فيك خالص ياسى شوقى ، وتعزك زى أخوها ، قالت لى عنك كتير ودايما بتجيب سيرتك بالخير يا بنى ، ربنا يرضى عليكم ياخويا ويسهلها لكم ويبعد عنكم ولاد الحرام ، والدكتور ربنا يخليه راجل طيب وابن حلال ، والثرثرة العجوز تسترسل وتطيب القلب ، وهو يستريح اليها ، راضيا ، ولكنه لا يخطىء فيها مع ذلك نغمة لعلها مقصودة ، لهجة الأم التى ترحب بعريس محتمل ، وتستكشف الطريق ، وتمهد الجو لعدل البنت التى فى سن الزواج ، فى ثقة وتمكن ومن غير اصطناع ودون اقتحام .

ونعمات تأتى له بالشاى على الصينية الزجاجية ، ويسطع له مرة أخرى وجودها فى مظهرها الجديد الحميم ، فى غير ملابس العمل وأناقتها المصنوعة ، بأناقة جديدة مستريحة ، وذراعاها العاريتان تبدوان منعشتين ، نسمة من هواء البحر الطرى فى الحر ، وقد تكسر البطن ، واسترخى النهدان بجانبى البلوزة

الواسعة ، والبنطلون البيتي الصيفى من قماش خفيف كاروهات أبيض وأسود ـ صغيرة ، هندسية ـ يستدير فى نعومة بالبطن والردفين ، فى التصاق حميم ، ويتحملها فى رفق ، يقيها من الانهمار فى الضوء ، وينتهى تحت الركبتين بقليل فيترك الساقين الفارعتين المسحوبتين رخامهما أبيض بارد • وهى ترفع ساقيها لكى تجلس على الفوتيى أمامه ، الى جنب ، فترتفع القدمان العاريتان من على الأرض ، وتدفعهما الى تحت جسمها ، فتلتصق بطن القدم الرقيقة بسمانة الساق المكشوفة المستديرة •

وتستريح فى جلستها ، وترفع فنجان الشاى لكى ترشف وتستطعم ، فى تخفف من كل عبء ، حسية الراحة على الفوتيى ومذاق السائل الأحمر الشفاف المنعش بسخونته ، يعدل المزاج ، ويرطب الجسم • والأحمر على شفتيها ، من لون الشريط العريض المعقود على الشعر ، والخط الأسود الحالك السواد الذى يحيط بالعينين ، ويحددهما ، ويكسبهما سعة ذئبية نائمة الضراوة ، فى صفرتهما الباهتة وهج الشاى المشع ، وهى تبتسم فى ارتياح ، ولكن فيها شىء مهدد كامن ، كأنما فرغت من أمر الفريسة ، وهى تتمطى فى أدغال الأثاث الرث القديم •

دخلت عليه فجأة وهو فى المعمل ، بعد انصراف الدكتور ، وحاول أن يفرش « الاهرام » على طبق

الفنجان ، لكنها كانت أسرع من حركته ، ورأت نثار دخان السيجارة الفرط المفتت فى الطبق ، والقطعة الصغيرة المغبرة اللون بجانبه • ولم تتكلم • كان المعمل معتما فى آخر العصر ، ولم يكن قد أضاء النور وفى عزمه أن ينتهى من السيجارة قبل أن ينصرف الى ليله الطويل المثقل بالعمل • كان وجهها رخاميا فى العتمة ، أكثر شحوبا مما رآه فى أى وقت • وقالت له بصوت مضطرب انها نازلة ، فلم يسرع الى النزول معها كعادته • وأكمل ما هو بسبيله ، وقضى ليلته يكتب مذكرات مستعجلة لأحد دكاترة الكلية • هل ثقل عليك العيار ؟ أبدا والله العظيم • لم أكن أحلم •

وهذا ليس كله بشىء ، هو يشرب لكى يساعده ذلك على السهر ، والعمل • هذا كل شىء •

كانت عيناها تتقدان بهذا الوهج الأصفر المحرق ، نار مركزة ، وصوتها مرتفع ثاقب لا يعى الا نفسه ، فى مناقشات ومشاحنات لا تنتهى الا لتبدا من جديد ، مناقشات فى العمل ، هذه المرة • هؤلاء النسوان لا يفرغ لهن ضجيج ، ورقة التحليل ، الست التخينة جاءت اليوم وفتحت عقيرتها، لماذا لم ينته شغلها ؟ وحسن المرض حرامى ، لماذا تتركه يسلم الشهادات للمرضى بنفسه • ليس هذا عمله ، ووقاحته معك •

ليس هذا من شأنى ولكن لماذا تسكت على لسانه السليط ؟ انت المسؤول ، لا شأن له بالشهادات • انت

المسؤول ، أليس كذلك ؟ وهل تعرف ماذا يقول عنك ، من ورائك ؟ ولكن هذا يحز في نفسي ؟ وانا مالى • • والشفتان الرقيقتان ترتجفان ، شفرتان حادتان لشيء قاطع ، وهو يحاول أن يناقشها ، أن يرد عليها ، بحجج هادئة ، وقد جف قلبه ، ونفسه تفور • هل العمل حقا هو مبعث هذه الهجمات التى تكاد تفقد فيها كل تحكم فى نفسها ؟ أم السبب امرأته ، وحكايتها ، أم اكتشافها فى المعمل ، فى آخر العصر ، أم هو حبوط ما فى دخيلتها يتفجر بالقشرة الساكنة البيضاء ، ويشققها ، عن هذا النفث من لهب وحميم آن ؟ وهو ينهض ، ويدور حول جثة الآلة الكاتبة السوداء ، والأوراق المتناثرة • ونور الشمس ينصب من النافذة الشرقية بزجاجها السميك العتيق ، ويسقط على كتفها • ثم يأخذ بذراعها يدعوها أن تجلس •

ندت عنه لحظة ، ثم استرخت فى المقعد ، كأنها قد استنفدت معين غضبتها ، والكتف المدورة الناعمة تحت القماش الأبيض الخفيف مشرقة فى أشعة الشمس، حلوة الاستدارة ، وينحسر طرف « الجيب » من أعلى الساق ، وركبتها البضة فوق ساقها الأخرى ، واعدة ، متحدرة من ربوة الفخذ تحت النسيج الصيفى • بم يرد عليها ؟ وما جدوى الكلام ؟ أى شيء يحقق له ما يتسوق اليه من اندماج كامل ، ووفاء كلى بالوعود التى ينبض بها الجسد ؟ ما من شيء فيه وفاء بالوعد • ما من سبيل الى الوفاء بالوعد • وعليه أن يروض نفسه ، ويسومها

الصد ، وينأى . عليه أن يجاهد هـذا الحريق اللاعج الذى يطوح به ، يدفعه للارتماء على ابواب هذا الهيكل الباذخ الناعم الرخام . وينحنى ، وهو يرد عليهـا . وشفتها السفلية الداكنة الحمرة مازالت ترتجف ، اهون رجفة ، مكتنزة بخصب لن يعرف طعمه أبدا . حتى لو عصفت الأنفاس الحارة ، ودفعت ظمأه الى النمرة المسيه بالرحيق ، فهناك فى داخله منطقة جدب كامله لا ارتواء فيها . ذراعاه فيهما توتر كهربى مشدود ، لو انه ضم الى صدره هذا الهيكل المنيف .

هناك فيه منعة لا تطال . وبصره يقع فجاة عـلى ثنية تحت زرين من أزرار قميصها الصيفى ، سيه من البطن العـارى تحت القمـاش انكشـفت للضـوء فى انحناءتها للامام ، وهى تضع سـاقا عـلى ساق ، عجين طرى متماسـك القوام تحت كنزين صـغيرين يحمـلان وعودا أخرى مخبوءة فى ضمة النسيج . الم يعرف هو، عبر محنته الطويلة ، ختل الوعود ؟ زم نفسه ، فى عناد لا يطاق ، عن ان يحيطها بذراعيه ، فهو يعرف ، يعرف انه لن يجد شيئا . ومهما كانت النار موقدة فى المحراب، فان قدس الأقداس خاو على عروشه . وهو يعرف انه سيبقى دائما ، دائما ، خارج الأبواب ، يشرب ، ويعمل طول النهار ، ويعمى من الشرب والشـغل ، هـذا كل شىء .

رنين الجرس المفاجىء العنيد ، فتقوم ترد عـلى

التليفون • نداءات معدنية مصمتة لابد من الرد عليها ، التليفون والباب والساعة والترام ، تخرش لا ينقطع ووخز الابر المشرعة فى اللحم الحى •

صدى صلصلة الجرس تحت سماء مفتوحة باهتة صافية مخففة الزرقة بالماء ، كسف السحاب البيضاء فى الشرق تخفى استدارة الشمس ، وينسكب منها ضوء رقراق طلق صحو ، والترام يصعد فجأة ، فى رحلته الطويلة ، على كتف من الأرض الرملية ، يتسنم متن الطريق ، بين سورين من أسلاك مشدودة على أوتاد حديدية عالية • وتنكشف زرقة السماء من بين الأسلاك، وهما فى الترام ، فوق ، على القضبان ، فوق قمة العالم، تحت السحاب الأبيض ، النوافذ مفتوحة يهب منها النور المبلول القادم من البحر ، وهناك فجأة ، تحت ، تنفسح أمام عينيه الصحراء • ومدينة الملح فى وسط العراء • امتدادات من مياه الملاحات الساكنة تتلألأ عليها طبقة بلورية من الملح اللامع • وتقوم فى وسطها أبراج عالية مخروطية ، عليها صلبان فضية تلمع وتعكس وهج النور الصباحى ، وقباب مستديرة مغبرة البياض ، ومآذن سامقة نحيلة، وتبدو له سطوح البيوت ، والمنائر، متلاصقة مربعة ، ومستطيلة ، مبنية بالطوب والحجر • وقد ساخت البلدة كلها فى وسط مستنقعات الملح ، وليس فى المدينة من حركة ، وسط المياه الساجية المكسوة بالملح ، سهول فسيحة حواليها ، والماء الملح يترقرق على طين رملى رخراخ ، أمواجه ضحلة صافية

على قاع الرمل ، يلعب تحتها الضوء ، فى قلب الصحراء الشاسعة المسطحة حتى الأفق ، ويهبط الترام فجأة ، تغور به الأرض ، وترتفع حواليه السدود الرملية القديمة المغسولة بمياه الأمطار من الشتاء ، فيها تجويفات رملية صلبة ، والترام يشق النور الخفيف الساكت ، في رؤيا من حميا رائعة ، وأوراق التين الشوكي الصلبة المشعثة ونباتات الصبارالجافة الداكنة ، منتصبة شائكة ، تضرب فيها عصارة كثيفة نزرة الماء ٠

وهما وحدهما ، فى الترام الخاوى ، يقف على المحطات الخشبية ، والأرصفة خالية ، ويقوم ٠ والسائق مندفع ، بين فجوات الصمت وضجيج القرقعة ، ويده تتلمس يدها ، وتعثر عليها ، فوق استدارة الجسم وبين حناياه الطرية ، وتتداخل الأصابع فى تماسك حميم وثيق ، في بحث ملهوف ٠ عظامها الرقيقة تصطدم بأصابعه ، تحت جلدها الدمث ، الغض ، وتدفن نفسها بين ثنيات يده ، متلمسة أيضا ، تنقب عن شيء ما ، عن تواصل ما ، عن اندماج محموم ، متعجلة ، تجوس ، وترتاد ، وتتفحص ، فى الحاح ، ولجج ، ولهفة ٠ والدماء تضرب فى رجولته ٠ الأبراج والقباب تنبض تحت الشمس ، فى مدينة ساحلية مهجوزة فيالصحراء ، تحت طبقات الملح ٠ والخطوط الحديدية تتشابك وتتداخل وتنفرج ، والمحطات تتوالى ، ثم تتراجع بين الرمال ٠

والترام يقف ، ها هى ذى المحطة ، وينتزع يده ، ونفسه ، منها ، فجأة • ويقف ، لا يقول شيئا ، وانما يجب أن يجرى ، وينزل يلحق محطته ، قبل أن يقــوم الترام ، ويندفع ، فى غشاوة محمومة منيرة • وما تكاد قدمه تمس أرض الرصيف ، وما يكاد ناظر المحطة ، الذى يقف وحده ، ينفخ فى صفارته ، وما آن يستدير ليلوح لها باشارة التحية والوداع ، وينفث الترام أولى آهاته ، متأهبا للحركة ، ويصلصل الجرس ، حتى يدفعه فجأة شخص ما ، من ورائه ، دون آن يراه ، الى داخــل الترام ، بينما الترام يتحرك • وهو يقبض مرغما ، متشبثا ، على حاجز السلم بخشبه اللامع القــديم ، فى هــذه الحمى الســاطعة ، فى صمت المحطة الصحراوية الخاوية ، وهــو عــلى سلم الترام وقد بدأت القضبان الحديدية تتراجع تحته ، وجســد القاطرة يتزلزل فى أول حركة • واذا بحاجز الســلم الخشــبى ينخلع مرة واحدة فى يده ، ويرتفع فى الهواء • وهو يتطوح . والترام قد تجمعت طاقته واندفع الى الأمام • وهو قد تزايل ، لا يستند الآن على شىء ، وقدماه تتزعزعان من على السلم ، والرصيف قد تراجع ، ويده قد ارتفعت قبضتها بالحاجز المخلوع ، وهو يتطرح ، ويتهاوى ، على وشك التردى الى الوراء ، فى سرعة انطلاق الترام • ولكن الكمسارى يمد يده فجأة ، ويجذبه ، ينتره الى الداخل ، مرة واحدة ، وهو يثب ، لا يحس شيئا ، واذا هو فى آلداخــل ، فى أمان مؤقت لحق لهفتــه ، وآواه

وراء زجاج الواجهة ، على رقعة من آرض الترام المعدنية المنطلقة فى طريقها ٠

يا أخى مش تحاسب ، حصل خير عـلى كل حال ، الحمد لله ، جت سليمة ٠ كأنه هو المذنب ، كان هـذا الحاجز الخشبى المخلوع لم يكن هناك ، ولا ذاك الذى دفع به الى سلم الترام ، من ظهره ٠ كأنما كان سيقع ، وتقع الحادثة ، بخطئه وذنبه ٠ وكانت قد ظلت جالسة، بلا حراك ، تشخص اليه ببصرها ، ثابتة النظرة ، فى عينيها ماء متموج مغروق ، لا ينسكب ، صامت ، عـلى قاع أصفر ذهبى باهت ، به نقاط رقيقة سوداء ٠

والكمسارى يتجه اليهما ، فى قصد ، يطلب شيئا ، مهددا ، لا يتكلم ، لكن لن يتراجع ٠ ومن ورائه ، من الدور العلوى للترام ، نزل الاعراب ، متجهين اليهما ، يطلبون شيئا ، لن يتراجعـوا ٠ لمة من البدو ، هم من سكان العامرية ، بلا شك ، أو هذه البلدة الصحراوية ، من النازلين فى المصحة ٠ على أكتافهم ورؤوسهم بطانيات صفراء ناصلة ، بها مربعات زرقاء باهتة ، يخفون بها جوانب وجوههم ، لا تبدو الا عيونهم السوداء الضيقة ، جامدة ، عميقة لا يسبر لهـا غـور ، تحت أهدابهـا الشقراء ، على الجلد الاسود المدبوغ ، وثنيات الغضون فى وجوههم تبدو خطوطا رقيقة معـرجة بيضـاء فى الجلود القشفة التى صوحتها شمس لا ترحم ، وصهدها حر قاس لا ينى يعود يوما بعد يوم ٠ وحول الفم تقرحات

بيضاء ، كأوراق معرقة باهتة ، ممزقة من وسطها مزقا مشعثة ، يغطونها، بأطراف البطانيات، بأيديهم المعروقة السوداء التى تشعب الهياض وتشرج ، فى بسوادها ، بأزهار وحشية الشكل، شائكة كالصبار • وهم يجتمعون حواليه وراء الكمسارى، صامتين، عيونهم ترى ولا ترى محترقة ، مصوبة نحوه ، مشدودة اليه ، تستطيع فى غورها ، لا تطرح • ماذا ترى فيه ؟ كل منهيا شمس صغيرة متقدة ، يتألبون عليه ، بأعوادهم الضيقة الخاسفة ، ضاوية أجسامهم تحت البطانيات ، وقد حفوا به ، كأنما يتوقعون منه الخيانة ، وينتظرونه ، وقد اعتورته ،برغمه ، سحابة همومهم ، وغشيته غاشيتهم • بؤرتهم هو ، هدفهم ، ونواة احتشادهم • ويمد اليه الكمسارى أصبعه ، فى تحذير ، هؤلاء قومك ، هؤلاء ناسك ، أطلب أيا منهم تجده • تحت أمرك • انت منهم، وهم لك • أنت ، نعم ، انت •

وقد ارتمض من ذعر مفاجىء ، نفضه من شلله ، فهب يفلت من خطر محيق •

ويندفع ، دون أن يدرى ، يجرى ، يثب ، ويسقط من الترام المنطلق بها ، بالكمسارى وبالسائق ، وبهم، بهم جميعا • هنا محطته ، لا طريق له بعد الآن • وتتطوح الأرض تحته ، ترتفع اليه ، صلبة ، ثم تنخفض به • وهو يجرى • تتلاحق ساقاه الى الامام ، يكاد ينكفىء على وجهه ، ويستقيم ، لا صوت يند عنه ، يلوح

بيديه • والترام قد انطلق بعيدا عنه ، أصم ، مغلقـا
على ما فيه •

ويقف ، يشد قامته ، وقدماه تثبتان على الأرض
الرملية ، يصدر عنها حفيف جاف فى السـكون الذى
يعـود فيرين عـلى كل شيء • وليس فى قلبه حس ما ،
الا بأنه وحده ، وقد وصل الى آخر السكة • وحده ، فى
رمل الصحراء ، ينسكب عليـه ضـوء رقراق من وراء
السـحاب الأبيض الخفيف • والهـواء جاف ، طاهر ،
والصـمت مطبق ، تام ، فى فـراغ الصـحراء ، أمام
الخطوط الحديدية الممتدة ، حتى النهاية •

القـاهرة

٧ مايو ١٩٦٧

جـرح مفتـوح

النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب ، وهـواء الصعيد الجاف له موسيقاه ، ومن الداخل تأتيه رائحـة الطلاء على الجدران الجديدة ، تحترق من الحر • وهو لا يكاد يتبين قامات الـرجال ، كالأعمـدة ، أكتافهـم حجرية ، تحت ثيابهم الفضفاضة ، كأنهم ليسوا هناك، فى ظلام الشارع الضيق ، فى البعد الغـائر العميق • برك النور من الفوانيس ، آسنة ، تطفوا عليها سحابات الهاموش الليلى وهى تموج ، من غير صوت •

القبة العريضة صـدر ممتلىء بشـهيق محبوس ، لا ينفرج أبدا عن زفير ، وقد انعقدت عليهـا طبقـات مترسبة فى نقش مطموس المعنى • والسـقف الواطىء المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب القديم ، ويصعد منه البرج المربع القصـير ، تأتى السـماء الصلبة من ورائه ، وتخترقه ، وتثبت فيه ، مثقوبة بابر مشـعة لا عداد لها ، بين الجوانب الراسخة السـميكة • جـرم الجرس الضخم المعلق ، اخرس ملجما ، يثقـل البنـاء

الجـاثم ، تحت ، فى وسـط ربوة الأرض المنحـدرة ، مدفونة فيها درجات السلم الرخامى النـاعمة المـدورة الحواف يتخايل له وضحها الباهت ، من عالم سفلى ٠

وهو يستدير اليها جالسة فى النور الآزرق الناصع الذى يتقد ، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور ٠ ساكتة ، محنية رآسها ، شعرها جـدائل كتان سـوداء كثيفة ، يفور تحت الطرحة التى علق بسوادها التراب٠ ساقاها ، حتى القـدمين ، تحت الجلابية الضـافية ، ممتدتان الى جانبها ، هيكل ساقط بين حقـول الـكليم الصوفى الخشن النبات ٠

ــ اجيه ٠٠ أجيه ٠

يربطها هذا الدم الواحد الرازح الوطأة ، وهـذه العشرة فدادين من الأرض فى حضن صخور الجبل ٠

كانت خطواتها ، طول عمره ، حـذو خطـواته ٠ قرينته ، يحسها معـه ولو كانت غائبـة ، يحس وقـع نظراتها عليه ، صابرة مطيعة ، الأخت التى لا عوض عنها أبدا ، معه فى كل مكان ٠

ــ اسم الله عليك ، وعلى أختك ٠

كان صوت أمه يجيئه ، ملهوفاً ، يقيله من عثرته ، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة ٠

ــ انت الآن أبى ، وأمى ، وأخى معا ٠٠ قم الآن

كل لقمة ·· قم ، تنام وتستريح سحابة الليل ، حتى يصبح الصباح ·

كان مكسورا ، خاويا فى آخر الليل · فقد كل ماء الحياة · عيناه حجريتان نضبت عنهما كل عصارة · فى عينيه الحفرة الطينية التى أسقط اليها النعش · ومازال صوت التراب ، وهو يسقط على الخشب ، يغص له حلقه ـ ارتياح آخر الاعمدة فى حضن الارض ـ وكان يغالب اجهاش الشهيق المكتوم ··

ـ نام ياخوى ·· يا خوى ! يا بوى ! يا بوى ··!

صرخة اليتم الكاوية التى لا يندمل جرحها أبدا · لقد انقضى آخر يوم من مجدها ·

ماذا حدث الآن ؟ ماذا يحدث ؟ كيف يطيق مرآها ؟ كيف تثبت عيناه بهذا الوجه الصغير الرقراق الذى تخفى نصفه الطرحة السوداء ، ولا تبرحان؟ ولا يستطيع أن يحول بصره عن هذه القامة الناضجة العذراء تنسدل الجلابية على ثمرتيها الراسختين ، لهما نداء آمر النبرة ، فيها ثبات لدن ، بقوته الخاصة ، وتحديه ، بمطالبته الخاصة التى لا يمكن أن تهدر ·

يدها الأخرى ، بأصابع طويلة عظيمة ، تمسك بقماش الطرحة الرقيق على صفحة وجهها · عينان تنظران اليه ، موجتين هادئتين ، من وراء كل الزمن ·

قدماها الحافيتان لا يكاد يند صوت عن وقعهما الرخص ، على البلاط الممسوح فى الطرقة ، وفى يدها الشاى ، موجته الصغيرة وراء الضفاف الشفافة تهتز على قاعدة سميكة مدورة من الزجاج ٠

وهو يرد سماء الليل بيده ، خارج النافذة ، كل الوحوش الآن فى الخارج ، محبوسة ٠ ويهتز مصباح النور العارى لصوت الاصطفاق المكتوم ٠ هما الآن فى سجن جديد مضىء ، والعمارة العالية كلها تحتها برج هش من الطوب والأسمنت والبلاط ، تصطرع فى قفصه العلوى حمامتان ٠

وهو يضع كوب الشاى على زجاج الكومودينو المصقول الذى يبرق فى النور ، ويشدها اليه ، سلسة ، منقادة ، لا تكاد تعترض :

ــ لا يا سيدى ٠٠ لا يا سيدى ٠٠

ويدفعها بجانبه على السرير ، وما زالت الملاءة البيضاء المفروشة تشع بوهج النهار ٠

كانت مع أبيه من قبل ٠ خدمتهم كلهم ٠ وعى لنفسه وهو يراها ، كما هى ، لم تتغير ، الأيام ترتفع وتنحسر وهى نفسها أجية ٠ هذا الوجه البنى المحروق، بعينيه المخطوطتين بالكحل الطويل ، سوادهما عميق ، صموت ، ومتسائل ، صورة مدفونة بين صفحات الكتاب القديم الذى كان يقلب رموزه فى طفولته ، والأنف

الاقنى الصخرى ، ناعما وحساسا مع ذلك · قالوا انها كانت عند جده ، وكانت أيضا هناك عنـد آباء جده ، من أيام جده السابع القديم ، ذلك الذى جاء ، لا يدرى أحد من أين ، ليستقر هنا ، ويشترى الأرض ، رمليـة مالحة هنا ، وسـوداء غمقة هناك · جففها ، وغطاها بجسده وعرقه ، حتى اخضرت بين يديه ، وامتدت الى النيل · لم يبق منها الآن الا « العشرة فدن » فى حضن الجبل ·

وكان يستيقظ فى الليل فزعا يصرخ من حلم ، فيرى وجهها ، هـو نفسـه ، وديعا ساجيا ، فى نور مصباح الجاز تحمله بيدها ، وتمسح العرق عن جبهته باليـد الأخرى ، نور يأتيه فى الظلمة ، باهرا كالنجدة ، فينام ودفء صدرها يطرد الأشباح عنه حتى مجىء النهار ·

وفى ليل طفولته كان يعرف ان دم الفراخ المذبوحة ، والبط ، والحمام الصريع قد ينبجس ويرش رخام عتبة الباب ، فلن تعود تجرى وتنق وتلقط الحب فى الحوش ، تحت الزير ، كان يعـرف ان القطة التى يجـدها فى الصبح مقلوبة على ظهرها ، منتفخة ، فى تراب الشارع ، لن تعود لتموء ، وتسحره ، قبل آن ينام · وكان يخاف آن يموت أبوه ، ويخاف أن يأتوا ليرفعوا اخوته من فوق التراب ، لا يتحركون ، فلا يعودون ليلعبوا معه أبدا · ثم ينسى ذلك كله سريعا · وكان يعرف أيضا ان أجية لن تموت ، لا تموت · ولا ينسى · كان فى دفينة حسه مكان لا نسيان فيه ، فيه أمن معتم صاف وراحة نهائية ،

كأنه يلعب وحده تحت السرير فى مكان لا يصل اليه غريب ·

ساقاها عمودان من حجر أسمر دافىء ، منحوتتان · وفى الحجر الوثير شرايين دقيقة زرقاء ، نبضها يرتعش ، لا يكاد ، تحت يديه · فى أصابعه حنان ملهوف ، وشفتان تتمرغان فى اللدونة المتماسكة ، ربوات ترتفع الى غيطان الجسد الممتدة حتى الأفق · ويده تدور بالخصر الصغير الهضيم ، تحت القميص الساتان الأخضر اليانع ، تحدس هيكل الاضلاع القوية تحت النعومة · الخضرة فى نسج القماش المرفوع على صدرها ، ينبثق منها النوار والأزهار ، فى خطوط متقاربة ، ومستأنسة ، وشامخة ، وعصية · عيناه غارقتان فى أمواج الزرع ، حتى مدى البصر · والهواء يحمل اليه رائحة الماء الذى يجرى تحت هذه الأرض ، رائحة تراب مروى ، حريفة ومنعشة ·

وفى كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية. ملساء ، على الجنبين ، يحتضنهما · بل يحتضن جانبى العالم كله · العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزا شاسعا مستحيلا ، بربواته ووهدأته الطرية · بين ذراعيه صحراوات مقفرة خاوية ، لينة ، ومشدودة ، ومتموجة ، فوق صخور العظام ، ملاستها تحت أصابعه ؛ ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمس رغبة

لا تنطفىء ، وليال ساطعة لا نهاية لها ، من الانتظار والوحشة ٠

وهو يشق القميص اللامع الناثان ، بعنف ٠

ويده ترتفع الى الجرح المشقق المتشعب الخطوط ٠ عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء ، مكوية ٠ عروق حجرية غائرة فى اللدونة المدورة السمراء ٠

كانت الصرخات الثاقبة تنوح فى خواء السماء ، متتالية طويلة ، تنادى وتستنجد ، والهواء قد خف فجأة ، وتخلخل ٠ والأصداء تتردد ، وتتضخم ، بين الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم ٠ الليل كله يتدفق وينزف فى هذه الصرخات ، حاشدا بنذير غامض يدق على أبواب القلب ٠ ثم جاء الصمت ، وسقط كاملا ، مسدودا ٠ حتى لقد كان يسمع له صوتا ، فى مجرى دمائه ، فى موج مسارها الذى لا يتوقف ٠

وكانوا قد خرجوا من البيت ، وراءه ، على خطوتين منه ، أولاد أعمامه ، تاوفيلس ، وجيسر ، ومينا ، خطواتهم تتباعد وتتقارب ، وعلى أكتافهم البنادق فى العتمة ، جامدين لا يهتزون فى مسيرتهم ، بارادة لم يعد بوسع شىء ان يوقفها ٠ ليس فى وجوههم الا الجفاف ٠

كان الخبر قد جاءهم فى أول الليل : آسرع ، أجية سقطت مصابة فى الغيط ٠ وصرخت النساء ، ثم

صمتن • قالوا انها بخير ، ولــكن حســه أنذره انهــم يدارون عنه ، قالوا جريحة فقط وان لم تستطع العودة للبيت ، ولكن حسه أنذره ان الجراح لم تعد من تلك التى يستدعى لهــا الطبيب ، قالوا جاءتهــا النــداهة وطلبت ماء ، أو الذئاب ، لاندرى ، أو لعلهــم عربان الجبل ، ووثبت عليها ، في عودتها الى الخص ، فى آخر الغيط وتزور أهلها ، وتسأل عنهم، عيبب ياخوى أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية ، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا ، والحريم ليس بوسعها أن تأتى اليـنــا هنــا فى البلد ، حرام ، وأنا أشتاق الى مجلســهم والســؤال عنهم ، أما الأولاد فيقضون اليوم عند آخوالهم ، والأكل جاهز ، والعيش طرى ، خبزنا البارحة ، ولن أغيب عن البيت الا ســحابة اليــوم ، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها ، صحيح ، ولكنها سحابة يوم وأعود • ولم أكن راضيا ، كنت أحس النذير ، لكنى سكت ، سكت ، فى جبن ، كان سكوتى عن خــوف أيضا ، وتعلل بأكاذيب هشة ، أعرف فى صميمي أنها أكاذيب هشة ، مهما بدت مقنعة : ليس هناك من بأس ، هذه العصابات قد انقطعت عن الاغارة على العمار منذ زمن بعيد ، وانصلح حالها ، والذئاب ؟ أين الذئاب ؟ لم يعد فى الجبل ذئاب تخيف أحدا ، وهم هناك قد قطعوا دابرها ، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحــدة ، أو ضربة من شــمروخ ، وها هى ذى الآن قد سقطت ، هل ماتت ؟ ولم تجد نجدة ؟ لم أكن هناك ، كانت وحدها •

ـ أجية ٠٠ أجية ٠٠

لم يرد عليه أحد ٠

كانت أجسام الفوانيس واقفة ، خضراء صدئة ممشوقة في الليل ، تقبل اليهم وهم يسيرون فى الشوارع المتعرجة ، تلقى برك النور على بيوت الخشب البغدادلى، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة ، مصمتة ومشققة ، على ورق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة في الجدران الطينية ، على آكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة ، على الأوراق القديمة الساقطة على الأرض لا تتحرك ، كأنما لا وزن لها ٠

كانوا قد تركوا حدود البلد ، وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التى يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب ، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام ، تنسرب وتخرخر فى القنوات الضيقة الموحلة ، شحيحة ، صوت أنفاس صعبة فى صدر عظمى شيخ ، ولكنه عنيد ٠

كيف يمكن أن أتركها ؟ فى دمى هى ، فى عظامى، مجدولة بنسيج لحمى ، التراب الذى فى يديها عالق بجدران قلبى ٠ وجهى لا يعرف له مأوى الا على فخذيها ، وتحت ثدييها ٠ هناك ، هناك فقط ، على أرض لحمها الدمثة بيتى ، فى تلك الخصوبة الكثيفة الزهمة ٠ هناك تسقط عنى مخاوفى وعذاباتى ، وأجد راحتى وأمنى ٠ وأجد عذابات أخرى فى راحتى ،

ومخـاوف آخرى في أمنى • هـذا كل مالى من راحة وأمان •

لنسيج القميص وهو ينبشـق في السـكوت المطبق صوت كنفث الفحيح المفاجىء •

وهـو يدير وجهها اليه ، وقد سقطت الطرحة من على السرير ، وتموجت وهى تتطاير الى الأرض ببطء مفروشة تغطى جانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم •

وندى من العرق الخفيف ، يتفصد قطرات دقيقة، في زرقة النور البيضاء ، يكشـف عن منابت شـعرها الفنى الاثيث على الجبهة المدورة السـمراء • وينهمر شعرها ، فى حريته الجديدة ، أمواجا وفيرة سوداء ، على ملاءة السرير •

وهو يرفع وجهها النقى من على السرير ، ويديره اليه ببطء ، وهى لا تقاومه ، طيعة ، عيناها مفتوحتان• ويده ترتفع الى الخد الممزق من تحت العينين الى عظمة الذقن ، بجلده المشدود ، مجعدا ، ضامرا ، متقبضا • شوهته ندوب كالشعيرات • متعرجة • جافة • تسـطع بينها ، فجأة ، مساحات صغيرة نضرة ، رائقة بريئة من كل شائبة ، في سمرتها الحية الغضة المنعشة ، وسـط آثار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التى التأمت عـلى شبكات من نغل دقيق صلب ومتجمد •

الجدران ساطعة خضراء ملساء •

وهـو يغطي خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قاسية ، يحس قلبه يتقبض من حنان لا يطاق ، والأنفاس تنحبس في حلقه ، وعيناه ، على الرغم منه تتغورقان ٠

عندما خرجوا من آخر الغيطان ، كان الرجال ساكتين ، جالسين خارج الخص ، أمام المساحة الضيقة التى تتعثر القدم فيها بالحصى والشقاف ، ويختلط فيها الرمل بالتراب ، حتى تأتي الأحجار الناتئة الهشة والصخور التي ترتفع الى صدر الجبل ٠ ومن خلال فتحة الباب ، كانت الفتائل المشتعلة تدخن فى كيزان المصابيح القديمة السوداء بجدرانها الصدئة الدهنية ، وتهتز فى الجاز العكر الثقيل ، وتلقي أضواء وظلالا متراوحة لها ذيول وتعرجات على الساحة الرملية ٠

وكانت لمة النساء متحلقة في الداخل حول بذرة موضوعة في وسطها ٠ وملابسهن سوداء ، والطرح ساقطة على الأكتاف العظمية ٠ وكانت تأتيه من بعيد أصوات لغط الكلام الحنون ، وثرثرة المواساة والتهوين ٠

كانت حمرة النور تتوهج له من بعيد ، داخل الخص ، من مصباح الجاز الزجاجى الوحيد المشرق وسط فتائل الصفيح ٠ بؤرة تتضرج وسط الخلاء تحت الجبل ٠ آخر عيدان الذرة في الغيط ، محلولة الشعر ، تهتز فى حرارة جنازة مظلمة ، من غير صراخ ٠ ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرجة صاعدة ، متربصة ،

متهددة ، نحو سماء قاتمة الزرقة ، قاحلة حادة الجوانب .

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين عند مقدم الموكب الصغير ، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية فى داخل الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور المدورة السوداء . طيور ليلية داكنة تهرب الى الجدران، وأجنحتها ترفرف وتصطفق ، أصواتها تهبط الى صمت قلق ، وعيونها لامعة، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق .

كانت عيناها واسعتين ، سوداوين ، فى النور المحمر ، بهما نظرة ثابتة حارة . وكانت ساقطة ، فى هدوء كأنه الراحة ، على بطانية فى لون البن المحروق ، مطوية فوق الحصيرة الرثة . وكانت تخفى نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذى ينتهى بشراريب مليئة دسمة بخيوط الحرير ، تسقط على صدرها . انحنى ، وأزاح الشال . كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب ، على جانب الوجه الصافى . كان أنفها الاشم متوترا ، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض فى النور ، مزمومتين على سر لن تبوحا به أبدا ، وفستانها الاسود ممزق ، منهوش ، وقد تصلبت مزق النسيج بالدم المتخثر اليابس ، تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات ندوب جراح طويلة مشروخة فى اللحم

المكدوم الأسمر الغض ، على الصدر الناهد ، وقد نفرت على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة ، مشقوقة فى وسطها بخطوط الحمرة الداكنة ٠

كانوا قد تربصوا خلف الخص ، وسقطوا عليها ، على هذا الحصير ٠ كانوا ثلاثة ، أو أكثر ٠ وكان النخل، فى رأس الغيط ، تحت الجبل ، هو الشاهد الوحيد ٠ كان المغرب أحمـــر ، يزرق وينطفىء ، ويتهـدم وراء الصخور القليلة الارتفاع ٠

كانت الأذرع قد أحاطت بهـا ، كثيرة ، وثيقـة صلبة ، كالكلابات ، وسقطت تحت هجمة السيقان ٠ كانوا قد اسندوا بنادقهم الى الحائط ٠ وتمزقت تحت اندفاع صخرى وحار ٠ هل صرخت ؟ أم كانت غائبة . نعم ، وراضية ٠

كانت قد انقضت مرة واحدة ، متزاحمة بأجسامها القضيفة القوية ٠ لم تكن تنبح ، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف وعيونهـا شعلات صلبة ٠ كانت تدور حولها ، وتفترش لحمها ٠ كانت المخـالب تخمش الأرض الطينية ، تحفرها ، فى احتكاك له قشعريرة ٠ وكانت تحس انسحاب المخالب ، حادة باردة ، على خدها وصـدرها ، صـاعدة هابطة ، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة ٠ كانت الأيدى المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد فى خطوط متقاطعة ، والانياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحـدة ،

وتغوص ، والشدقان مسحوبان الى الوراء ، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التى لا تطاق ·

كان فى الخص ، فى حرارة الليل ، نفث كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة · رائحة أتته من ليالى طفولته ، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب ، وينادى : أمه ، أمه ·· وهى تعجن فى صمت الليل ، وصوت العجين الطرى يصطفق · وكانت تقوم تغطى القصعة بالملاءات النظيفة ، والبطاطين ، ليتخمر حتى الصباح · وتأتى اليه ، تسقيه ، وتلف حوله الغطاء ، وهو يرى فى نور حلم مهتز وجهها الأسمر الساكن الصبور ·

عيناها شاخصتان اليه ، ورأسها على البطانية ، وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء ، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور ، متورما مرضوضا ، وشرايين حمراء مشرجة قد نزت على صفحة الجلد المغسولة ·

العذراء وقد سقطت · أين كان ابنها ؟

ـ قدر ومكتوب ، ما باليد حيلة ·

ـ كيف ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟

ـ من يصدق ؟

ـ كانت وحدها يا أختى · ياعينى ·

ـ أمر الله ومشيئته ·

ـ ما استطاعت أن تفعل شيئا ٠

ـ ياختى ٠٠ ياضناى ٠

ـ وماذا يجدى الكلام الآن ؟ مشيئة الله ٠

ـ كيف جاءت هنا وحدها ؟

ـ اختنا وحبيبتنا ، كنا معها ، قلبنا معها ٠

ـ كيف حدث اذن ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟

ـ أجيه ٠٠ أجيه ٠٠ !

وهو يحتضنها بقوة ، بين ذراعيه ، فى شبق الحنان ، ويدفع وجهها الى صدره ، يخفى جرحها ٠ شفتاها تحت ذراعه ، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة ، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفر فى أذنيه ٠

كانت المرأة قد نادت عليها ، فى أول الليل ، وكان صوتها شابا ، ومبحوحا ٠ واقتربت من الخص ٠ كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوى ، اسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها ، وفى يدها عود حطب ٠ وكانت وراءها ثلاث عنزات تثغو ، وترفع رأسها الى الجبل ٠ كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل ، فيترك خطا عريضا ٠ وكان الجبل رماديا ، وآعواد الذرة صامتة ، متزاحمة ومتلاصقة ، شاخصة فى نقش مشعث حجرى ، عليه رواسب من التراب ٠

ومدت المرأة اليها يدها ، فى حركة دعاء واسترحام ٠

ـ عطشانة ياستى ٠

وعندما اقتربت منها ، كان وجهها ناحلا ، تحت العصابة العريضة الداكنة الحمرة التى تدور بجبهتها ، وكانت شفتاها ملحيتين موشومتين بالأخضر ، والحلقة الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها • وكانت وسوسة الحلى الصفيح على صدرها ، فى الخلاء ، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة •

ـ عطشانة ياستى • اسقينى لله •

بصوت لان له قلبها فجأة •

كيف نسيت؟ كيف تركتها تقترب؟ كانت الامارات كلها هناك ، وكم من مرة سمعت الحكايات ، فى كل القيعان والبيوت ؟

كان فى عينيها تضرع القطة ، وفى مشيتها المتمهلة على الرمل انسياب ناعم ، وكان كل شىء ساكنا ، لكنها تحس مع ذلك نبض الترقب حولها ، ولهفة الترصد ولا تملك أن تغير شيئا •

عادت الى الداخل ، ورفعت جالوص الطين الذى يغطى البلاص ، وغمست الكوز فى مرآة الماء المصقولة • كان فى بقبقة الماء وهو يلين ، ويتكسر ويملأ الكوز ، ما يريح الصدر ، ويجعلها كأنها تبتسم ، مسحورة • وأخرجت الكوز مائلا من الفوهة المدورة ، وهو يشر بالماء البارد ، واستدارت لتسقى المرآة •

احتضنتها النداهة ، فجأة ، وأحاطت بها ، وسقط الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة ، وينسكب على

الحصير ، لا يهتم به أحد ، ووجدت نفسها في قبضة عناق خانق ، رائحة الجلباب الأسود المترب تكتم نفسها، وهيكل المرأة الجاف يضغط على جسمها، والحلى الصفيح مغروزة في صدرها ، تؤلمها . واندلعت النار في وجهها . كانت المرأة تقبلها بشفتين من الشوك ، قبلات حادة لاسعة . ثم انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلها في خشخشة الثياب السوداء الثقيلة التى التفت بها من كل جانب ، قبلات كاوية متلاحقة . وقد انبثقت نافورة من الألم تتفجر على ثديها ، وتترك آثارا رفيعة ثاقبة تنشعب كالبرق . وفتحت فمها تصرخ، فاغرة . هل صدر عنها صوت ؟ هل حدث شيء ؟ كان كل شيء حولها مقفرا ، موحشا ، وليس هناك غيرها . وقد سقطت على الحصير . كانت تسمع الرجال يتنادون ويجرون من بعيد . قادمين اليها بنجدة فات أوانها ، وكانت النساء تصرخ . لم تكن هناك اعرابية ، ولا معين ، لا شيء ، الا عارها ، جراح كأغصان النباتات الشوكية التى تنبعث بين أحراش الحلفاء ، وعلى حواف الترع المشققة من الجفاف . حزمة كاوية بها عقد والتواءات ، مدببة الأطراف ، متقاطعة ومتداخلة على صدرها وخدها .

وهو يغطيها بجسمه ، كأنه يحميها من عريها ، وعارها . يتلقى عنها ، بعظامه وبعضلاته الموجعة ، ثقل النور ، فى سجن الجدران اللامعة ، ويدرأ عنها غيبوبة . ترك لها صدره تغمض عليه عيناها الجريحتين ، وتلصق به خدها المحفور ، وصدرها

المنتهك · يدخلّ معها فى منطقة حميمة خاصة بهما معا، مغـارة تتقطر فيهـا أشـعة خاطفة ، فى قلب صـخر من النور الرازح ·

قديستى المستباحة · كيف امتهنت ؟ كيف امتهنا ؟

كان يقظا فى ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة ، وهى تنام الى جانبه ، وجهها فيه سلام ، وفمها مفتوح فى حلم منعزل لا صلة له به ·

وكانت أطـرافه كلها متـوترة فى قلق متـوفز كهربى ، ترتعش له الأعصاب ، دون أن يملك أن يردها· تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه ، فى صراخ ملحاح ممتلىء الأحشاء بالخوف ، تتردد له أصداء ثقيلة ، برنك من الصوت ، معدنية ، تنداح من جـوف جرس ضخم ، وتتسـع على صـفحة الليل ، تحمل تهديدا يحيط بكل شىء · وصمتت البلدة كلها ، حبست أنفاسها ، وسـمع وشوشة النخيل فى حوش الكنيسة ، تحت ·

وتقلبت أجية وتمتمت فى نومها :

ـ من مات ؟

وفى عتمـة الغـرفة رأى عـلى السـقف الأبيض صرصارا داكن اللون ، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية ، وهو يسير ، فى عمى ، الى وجهة مقصودة ·

وانطلقت صـفارة القطار من المحطة ، متصلة ، متطاولة ، تجلجـل فى نفس واحـد لا ينتهى ، تبشر

بالخلاص ، والعجـلات تقرقع منطلقة الى بعيد ، فوق الجسر ، حتى تقلب الرعد الحديدى الليلى وانتهى الى مطر خافت يتقاطر فى فراغ الحقول .

وعاد الصمت موحشا ، يملأ السماء ، تنفتح له فى النفس فجوة شاسعة بلا قرار . وهــو وحــده ، بازاء الصمت ، يحس صهد الحرارة فى وجهه ، جسمه ينتفض بالعرق ، وأطرافه ترتجف .

يا حبى ، كيف امتهنــوك ؟ كيف امتهنت ؟ كيف سقطت ؟

أبكى ، كالطفل .

كيف أبرأ ؟ وتبرئين ؟ بكاء السـقوط يا حبى ، والامتهان . كيف تجف الدموع ؟ .

وفى الغد لم يكن يجرؤ عــلى أن ينظر الى عيــون الرجال . سقطت، لكنها طاهرة . مغتصبة، بل داعرة . شهيدة ، وضحية .

ــ أجية .. أجية ..

كانت عيون الرجال متباعدة ، لا تبـوح بشىء . كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيهـا ، وكان صـوته هادئا ، محبوسا . كان الرجال قد انطوى كل الى وحدة داخلية . عزفت النفوس عن الالتقاء .

منذ متى جاء هذا البرد ؟ وتفككت الظلمة ؟ كان الرجال قد ناموا على الحصير ، وبنادقهم الى جوارهم على

الأرض • التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطين • فى الخص الطينى الضيق كثافة النوم ، وأصوات الأنفاس الثقيلة المكتومة ، لم يطلقها النوم من الحبس •

وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجرى من جديد •

من يصدق انه نام أيضا ، واستراح •

وعندما خرج ، وتركهم نائمين ، كأنما يودعهم فى حنان لا رى له ، كانت حقول الذرة فى النور الأول للنهار ، مبلولة من الندى ، ونواصيها مثقلة محنية بالماء ، لا تكاد تهتز فى رعشة البرد التى سرعان ما انجابت • كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الطل المخضلة • تطايرت شبورة الفجر سريعا ، لم تبق منها الا نفثات خفيفة بيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة •

كان ذهنه خاويا ، صافيا ، وقدماه تسيران به ، وحدهما ، بين الحصى والحجر ، الى طريق الجبل •

والسماء مشدودة ، سخنة ، والشمس قاسية فى عينيه •

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغروز • وهو يضع وجهه على خدها ، يحس شقوقه الجافة ، ونضرته ، وقسوته •

انت تقتليننى •

القاهرة

٣١ مارس ١٩٦٩

البرج القـديم

وهو ينحنى بوجهه على المدفأة ، يرعى نارها ، هبات الدخان الخفيفة ترتفع اليه ، تصـدم عينيـه فجـأة ، وجفناه يضيقان ، ولا يعود أمامه الا شق تلعب ألسنة النيران الصغيرة فيه ، تتولد ، وتختفى • ويحس الدموع تتقطر فى ركنى عينيه • ثم يطير الهواء بالدخان بعيدا عنه ، الى ناحية الباب ، ولا تبقى الا رائحة الجاز الحريف على قطع الخشب التى غطاها تراب الاحتراق الرقيق وانهارت أطرافها وتفحمت فى ألياف طوليـة هشـة مازالت متماسـكة بين قطـع الفحم المبلولة ، رطيبـة السواد ، معدنية ، اللمعان ، مرصوصـة ، ثمينة عـلى التراب الضارب الى البياض ، الشديد النعومة ، تتطاير منه على وجهه هبوات تتشتت للفـور ، كلمـا نفخ فى النـــار •

كان جسم المدفأة الفخـار ، المـدور ، المحبب بين يديه ، مايزال باردا •

مسح بظهر يده الهباء الناعم الماسخ الطعم الذى علق بشفتيه ، ودعك يديه احداهما بالأخرى ،وهـــو

يرجف رجفات سريعة خاطفة ، ونظر الى الباب الخشبي القديم ، مفتوحا ، مائلا فى عتمة المساء على العتبة الداكنة ببقع مياه يتشربها التراب الشبعان . نشق بعمق ، يملأ صدره الذى أوشك آن ينضب . وعب من هواء أمشير اللاذع البرد ، وهو يآتيه فتضطرب نيران المدفأة ، وتموج أطراف شجرة الجميز العجوز على الباب ، وترتطم أغصانها المثقلة . نفثات الدخان الكثيف تتلاطم تحت فمه ـ نبيذا مرا ثقيل المذاق ـ وتكاد تخنق اندفاعات النار التى تنبثق مع ذلك فجأة ، هنا وهناك ، رشيقة وحرة ، من حيث لا يتوقع انفلاتها، من تحت مخابىء الفحم والخشب .

أمشير هذه السنة جاء مبكرا ، بزعابيبه وترابه وهوائه القارص . رفع رأسه الى سقف الحوش المفتوح على السماء . على الله تكون الجاموسة دفيانة فى الزريبة . أمر عليها لما تمسك النار ، وتحمى .

سماء الليل جدار من الرصاص مقلوب ، وفى فتحاته الزرقاء الباهتة بين سواد السحاب ، أجنحة الحدادى التى لم تأو بعد الى آكنانها ، امتدادات لا حراك بها ، مبسوطة الريش ، منحوتة ، فرعونية ، بدائية ، ساذجة ولكنها مازالت مهددة لها سطوة .

فى ركبتيه وسمانتى ساقيه خدر طفيف من جلسته، مقعيا غير مستقر على الأرض ، أمام المدفأة ، وأنفاسه متداركة لكنه وحده مع متعة خفيفة رقيقة ، فى العتمة

الشاتية ، واضطراب ريح أول المساء حواليه . يحس عظام صدره على رقتها غضة فتية تقبل التحدى ، وجسمه الطويل المنحنى ، على ما يثقله من تعب طـول النهار ، لدنا مرنا تحت الجلابية الكستور الثقيلة ، والبرد يلسع ما بين ساقيه فجأة ويهرب سريعـا . وقدماه تحتـكان بالأرض يحس التراب الخفيف على جانبيهما ، وأصابعه تغوص فى جلد الشبشب العتيق النحيل .

من ورائه صرخة مفاجئة من الفراخ ، نقيقا ثاقبا قصيرا مفزعا ، وفى لفتته للوراء صمتت الفراخ مرة واحدة ، كما صرخت . لماذا اهتـاجت هـذه الفـراخ فجأة ؟ قلة عقل ؟ شيء دخل الزريبـة من بين أيدينـا ؟ لا يا شيخ .. والله ممكن ، يا داهية لا تكون العرسـة نطت من ع الحيط ، أو يمـكن فار من الفـيران الجبلى الهربانة من الكوم الغربى ، تعملها وحيـاة العـدرا . تنسرق فى المسـا من غـير حس ، وتعقر الكتـاكيت ، لا يا شيخ فال الله ولا فالك . قلة عقل منك انت .. كان زمان الكفر كله صحى من زياط الفـراخ والوز ، والجاموسة نعرت وحسها ملا البلد .

خيط من النور الأصفر المحمر يطعن العتمة مهتزة ولكن مثابرة متصلة ، من باب المنـدرة المـوارب ، ثم يسقط على أرض المدخل ، ويرتفع عـلى جدار الطوب الاسـود اليابس ، وينحرف ، ويتعرج ، وينشـعب عن

زوايا حادة رخيصة متشابكة على عروق الخشب ، المتفرعة بأعواد مشعثة عظمية الجفاف ، على أشلاء أغصان شجرة الجميز المقطوعة للوقيد ، ميتة ، متساقطة الورق تخشخش فى الهواء البارد ، وعلى أعمدة صغيرة مهددة بالسقوط من أقراص الجلة ، تتخايل كلها فى شبه العتمة ، تحت سماء تسطع زرقتها الأخيرة ، خالية الآن ، بين أكوام السحاب التى تتقلب وتنساب ، بسرعة وصمت ، على السطوح الوَاطئة الناتئة الأطراف ٠

ثم لم يعد هنا شيء الا هذا الجهد الممتع المستغرق، شفتاه وفمه هما كل جسمه ، وهو ينفخ بانتظام وحذق، ويدارى بيديه على النار ، من هنا وهناك ، كأنها عشيقته ، فى خفاء ، يحميها من هبات ريح أمشير المفاجئة ، وفحماتها تحمر ، ثم تبيض ، فى اتقاد ساطع ، والخشب يقرقع فى احتراق بهيج ، ورائحة الجاز قد اختفت أو كادت وحلت محلها رائحة سخونة الرماد النظيف ٠

كان ينحدر الآن من ذروة اكتمال ما ، وتحقق فات وأعقبه تهدل وراحة واسترخاء متعب فيه بقية من توتر قليل ، والله لا راحة فى ليل أو نهار ، نشقى طول النهار فى دفاتر الجمعية ، وايصالات الفلاحين وحسابات التقاوى ورصيد السلفة على المحصول وعهدة السولار والجرارات وأقساط الاصلاح وأوراق المهندس الزراعى ، والميكانيكية ، وخصومات العجز ٠ والكيماوى

والمبيدات ، وفوق هذا كله وقبل هذا كله طلبات البهوات من العيلة الكبيرة ، كله على دماغى أنا ، ومن ورائنا وأمامنا وحوالينا الباشكاتب ورئيس الجمعية . أنا عارف ، عارف أن الدفاتر والأوراق فيها لعب ، لكن أولاد الكلب لا يتركون الدفاتر على بعض معى أبداً ، دائماً معهم بحجة المراجعة وطلبات مصر ، وتقفل عليها الخزانة ، انت عليك التقييد والجمع والطرح والنقل من ايصالات وفواتير ولا شيء آخر . فاهم ؟ صحيح ، ليس هناك ورقة بامضائي ، هو أنا مجنون ؟ ليس هذا شغلى ولا مسئوليتى ، وأنا مالى ياعم . آه يانى . صرخة ثاقبة ، لا عاقلة ، قصيرة ، نهائية . أنة من بعيد ، خدشت طرف وعيه ، لحظة ، وانقطعت . حمامة فى البرج سقطت عليها حدأة . فرخة انقضت عليها عرسة . طفلة ، فوق ، أمام قسوة العالم الجديد ، بقبضته الخشنة .

صرخت صرختها قبل أن تموت .

لم يسعفها شيء . لم ينجدها أحد . صرخت ، أطلقت فى ليل اللامبالاة آخر صيحة حياتها . حياتها . حرام ، حرام وحياة العذرا ، يقولون الباشكاتب قنى عشرين فدانا ، في بحرى ، بعد البحر ، الجربوع الحرامى ، أبو اعدادية ، من أين جاءت الفدادين العشرون ؟ من السف والنهب ، من الضحك على دقن الاصلاح ، من دم الفلاحين ، ولاد الكلب ، هم أيضا

ساكتين ، مغفلين ، قال كتبــوا عرايض قال ، ما الذى يسكتهم ؟ قال « كدب مسوى أحسن من صدق منعكش » حسابات سليمة ميه فى الميــه ، وأنا أيضــا حمــار ، لا أعرف أبدا أن أضع يدى على شىء ، عصابة الله يخرب بيوتهم ، ويمكن غير صحيح ، بعض الظن اثم كما يقول اخواننا ولكن أهناك دخان من غير نار ؟ حتى فى الليل لا يرحمنا الهم ، الله يسامحك يا آبا ارسانى ، أما كان يخرج من يدك أن توفر لنفسك ، من أيام العز المتلتل ، ثلاثة أربعة فدن ، أو خمســة ، بدل القيراطين العمى نطفح الكوتة لما نتحصل على ايجارهم ، وتترك لى كبشة أولاد وبنات أخوات أوكلهم وأعلمهم وأكسيهم ، يأخى كفايه غلب المدارس ، وطلبات المدارس ، وسنتين ثلاثا وأحمل هم شوار البنات ٠

وانت يابا آرسانى : ربــع الــكونياك كل ليلتين تلاتة ، والمزة ، البيض أو ليمــون ، والكبــدة وجوز الحمام ، وعلبة البلمونت صحيحة ٠

لم يسمع نفسه وهو يضحك ضحكة خافتة مستمتعة فى غير سخط ، بل بشىء من الاعجاب : هــذه العظمة الناشفة القديمة ، لا تنهد أبدا ٠ أوشك على الثمانين ، بل لابد تجاوزها ، ومازال أيضا عفيا لا يدير رأســه ربع الكونياك ولو شربه وحده ، وذهنه أصفى من قلم حسابات بكله وكليله ، وحياة ستنا العدرا ، يغلب بلد آبا ارسانى ، وعينه كالصقر ، لا يفلت منها شىء ٠

هم واقفا فجأة ، وقد صمت ذهنه مرة واحـدة ٠ لكأنه نسى ، أو لعله لم يوجد أبدا ـ هم ولادة البنت ، ومصاريفها ، وخوف التهديد والقلق الذى يجفف قلبه ٠ لكأنه عاد بريئا ، حـرا ، نقيـا ٠ خمس سـنوات الى الوراء ، هل هى خمسة ؟ أبدا ، لن يغتسل أبدا من هذا التوجس ، لن يخلص أبدا من هذه المواجهة مع زحمـة المخاوف وضرورة الهجوم معا ٠ كأنه هناك وراء خمس سـنين ، وهـو مع ذلك هنـا ، والآن ، قبل أن يتزوج حنونة ، وتلد ، ثلاث مرات ، بنت كل مرة ٠ وتمـوت البنت ٠ كل مرة ، قبل الأسبوع ٠ كأن يدا مسحت من ذهنه هذه السنوات كلها ، بل سنوات العمر كله ، كأنه لم تكن هناك سنوات مرت أو تمر ، ثم انفكت حبسـة ذهنه ، وعادت الأصوات تملأه من جديد ٠

وهز رأسه فى دهشة من نفسه نسيها للفور ، وهو ينظر الى الحائط المسدود فى الدور الثـانى ، ويرتقى درجات السلم الترابيـة المتحـدرة الى الغـرفة العلوية الكبيرة أمام البسطة على سقف الزريبة ، مقفلة اتقـاء للبرد ، شباكها المطل على الزقاق محكم السـد بالخرق المحشورة بين الحائط وضلفة الخشب المتأرجحة أبدا ، المسنودة بالعلب الصفيح والكراكيب والهدوم والحقاق، وزجاجة الـزيت الراكد المدهنـة ، اللزجة الفـوهة ، برواسبه البيضاء الثقيلة فى قعر الزجاجة تلمـؤها ، حنونة على تفلها ولا تفرغها أبدا ، كأنها تخشى ، لـو نظفتها ، نضوب البركة ٠ وجنبها زجاجات الخل والسبرتو

معا ، كيف تميز بينها ؟ كل منها فوهتها سوداء محشوة بقطعة ملفوفة مدكوكة من ورق الجرنال ، الداكن الاحمرار . وقطعة المرآة المكسورة والغلاية الخشب وانصاف الأمشاط البلاستيك والقمع الصفيح الصدىء . وقلبه يبتل من جديد من الشوق للدفء الذى طالما عرفه فى هذه الغرفة ، وتغرق أرضه أمواج التوق لجنون الانطلاق الحسى العارم ، وأمواج الخوف أيضا من مضض القلق والانتظار والانطفاء ، وطعم التراب الكاسد الثقيل ، والعجز أمام جفاف الحياة الصغيرة التى تذبل وتركد وتلتوى هامدة فى الاقمطة واللفائف ، كل مرة ، يعود اليها يحملها ، على ذراعيه ، الى تحت ، الى النعش الخشبى الصغير الاسود بصلبانه البيضاء .. يا رب .. يا رب .. ارحمها هذه المرة يارب .. ارحمنا ، كيريا لايسون .. يارب ارحم .. ارحمنا .. ارحمنا .. دستة شمع نذر على يا ستنا العدرا وآدى ندرك ياست .. يا أم النور ..

ـ احم .. يا ساتر .. ياساتر .

ودقات عصا ثقيلة على تراب الأرض ، من الخارج. تقترب مع الصوت الأجش المجروح .

وفى نفس الوقت هرولة نرجس الصغيرة على السلالم ، والباب ينفتح ونور مصباح الجاز « الشيخ على » ، يثب ، ويتطاول ، ينخسف فجأة يكاد ينطفىء فى يدها ، وأخته تهتف به هتفات خافتة ملهوفة ،

قدماها الحافيتان ، السوداوان بعظامهما الرقيقة الصغيرة ، على التراب ·

ــ أبا فانوس ·· المعلم جورجي ·· المعلم جورجى جاى ·

وفى نظرة حنو تعرفها البنت وتألفها ، تبتسم له عيناها الضيقتان بمكر ، وفى صوته قشرة مكسورة من قسوة خادعة :

ــ طب يا بت يا مقصوفة الرقبة ، مالك اتسرعت ليه ؟ ادخلى قولى لبنت خالتك حنونة تحضر العشا · وشوفى آبا ارسانى ينزل المندرة يا الله يابت ياللا اعملى لك همه ، وروحى اندهى البت المديوبة خضرة شوفيها متاوية فى آنى داهية ، همى يابت جاكى ديب·

مقصوفة الرقبة فرحانة لأنها تعرف ان الليلة التى يجىء فيها المعلم جورجى سينالها نصيب من الزفر ، وهو يأتى اليها فى جيبه بكرملة من عند الخواجا شنوده البقال ، يدسها فى يدها من وراء ظهرنا · ومازالت البنت تتوثب بالافراح واللهفات الطفلية ، فى الابتدائى مازالت ، أما أخواتها الثلاث فقد انتهت طفولتهن ، وهن لا يختلفن عن الفلاحين فى شىء · وطافت بذهنه آمال قديمة مألوفةأن يصبحن كقريباتهن فى دمنهور ، أو اسكندرية ، ومازال يراهن فى مستقبل غامض : فى بيت بالماء والنور ، زوجات موظفين ، رشيقات نظيفات اخوتهن تخرجوا من الجامعة دكاترة ومهندسين ومدرسين ، متى يارب أرتاح من همومهم

جميعا وأفرغ لحالى ونفسى ، لا أعول هم المدارس والأزواج ، والأولاد الذين يخرجون كل يوم على وش الصبح يسيرون للمدرسة فى الخطاطبة على أقدامهم ، توفيرا للاشتراك ، ويعودون كل عصر ، عشرة كيلو متر كل يوم صباح مساء ، ومع ذلك ربنا يحرسهم ، ينجحون بمجاميع ·

كانت خضرة تنحنى ، بجسمها الفارع القوى اللدن، ثم ترتفع قامتها الطويلة من تحت الجلابية السوداء السابغة المتربة ، مشقوقة على الصدر ، ويبدو من الشق طرف جلابيتها التحتانية ، المغسولة الباهتة الزرقة ، ولحم صدرها الأسمر المتماسك · وعلى رأسها خرقة القماش المبططة ، على الطرحة ، ترتفع فوقها الصينية النحاس الواسعة ، وعليها ما فضل من العشا · تهتز الأطباق والأكواب وتنزلق قليلا على الصينية ولكنها لا ترتطم بعضها بالبعض ، بل تتثبت فى توازن · والظهر النسائى الشامخ ، منسرح ، متين الاسار ، من تحت الجلابية التى تحف أطرافها بالتراب من على القدمين الكبيرتين الحافيتين · وانكشف خشب الطبلية الصغيرة مسودا رقيقا ، هزيلا ، عظم قديم فى تربة ، بعد أن أزيح عنها الغطاء المعدنى الباذخ الصفرة بنحاسه العريق وبقع السمن اللامعة ·

ورجعت خضرة بالصابون أبو ريحة ، والطشت عليه الابريق · كانت يداه تنعمان برغوة الصابونة النافذة العطرة ، وخيط الماء الأسمر يتسرب رقيقا باردا،

جاءت به البنت ، بلا شك من الانجر الكبير تحت الزير، يثلج حموة فى يديه ودمائه ، ليست من هبو الكونياك ولا من حمو ذكر البط ، بل هى وهـج داخـلى يشـعل أحشاءه ، ويحس معه ذكورته متطلبة ، آمرة ، متوترة ، والبنت تنحنى ، وصدرها الوثير يتدحرج تحت الجلابية السـوداء ، ويندفق نهـداها من فوق طرف القميص الناصل ، ويملآن الشق الطـولى الـرفيع ، فى وفرة ، وضغط ، ويتخذان مرفأ خاصا واستدارة خاصة ، اذ يتضامان معا ، تحت النور المحمر ، وهى تنحنى تصب له الماء ، وفى رائحتها يختلط نفح جسدها الحميم بطعم الحليب الطـازج ، ورائحـة الجاموسـة ودخان الجلة الدافئة الجديدة ، والصابون ، والزفر السمين المطبوخ، فى بخاره العبق ، كلها نعومة ، ومتانة ، راسخة أيضا ، كل شىء فيها مدور ، محكم اللدونة ، ليس فيها ما يخدش الحس أو يهبش بالمخلب والمنقـار الحـاد ، ولا قسـوة العينين المفتوحتين الصاحيتين أبدا ٠

وعنـدما ذهبت للمرة الأخـيرة ، وعينـاه تتبعان موسـيقى الردفين بايقـاعهما الغنى ، البطىء ، المليء ، عايز حاجة يا معلم ؟ طب تصبحوا عـلى خـير ، بجى ، فتكوا بعافية ٠٠ أحس جسمه يتمطى ، بالرغم منـه ، مهدودا وملآن ، مازال فيه توتر قليل يخبو ، يحث على الراحة لا على التوفز بالقلق والهجوم ، وفى رأسه دوار الكونيـاك الخفيف ، ومازال فى زجاجة النص بقيـة ، ولكن عينيه صافيتان، مجلوتان، كل شىء يبدو له محددا

قاطعا ، فى ضوء أسطع قليلا من المعتاد ، أوضح قليلا من المعتاد ، كأنه ينظر من خلال عدسة مقربة جديدة : وجه المعلم جورجى المكتنز المترهل ، بجلده المزرق ، المنقور بآثار جدرى قديم، وعينيه الجاحظتين المبقورتين، من غير نظارة ، نيئتين ، تدور المقلتان من غير رؤية ، وتحس انها تتبعانك مع ذلك ترصدان كل حركة فى داخل نفسك أيضا ، خففت الألفة القديمة بشاعة شكلها ، لا يضع عليهما نظارة سوداء ، ولا يريد ، لكنهما الليلة تبدوان له كأنهما جديدتان عليه ، فى اقتحامهما وفجورهما ، فى بذاءة سافرة ، وغريب منه أن يقبلها ـ هذه البذاءة ـ ويسلم بها ، مع ذلك ، هو والقرية كلها . لا صلة لذلك بأنه عريف الكنيسة وكبير الشماسين فيها ـ وحافظ لا تخونه الذاكرة ـ أبدا للخولاجى كله ولألف ترنيمة بالقبطية والعربية معا ـ وانه هناك حيث كل شيء كبير وصغير ، فى الولادة والتنصير والقربان وجبانيوت الخطوبة واكليل الزفاف وقداس الجناز ، فى رش الماء المقدس فى البيت بعد الموت اراحة للروح من عناء الانفصال ، وعند تفريق الملبس، وشرب المغات ، فى تسجيل عقود الايجارات والبيوعات، وبعد جمع القطن ، وفى كيل القمح ، عند ذبح الوزة وعشار الجاموسة ، فى لعب الطاولة وعشرة البصرة ، وعندما يأتى حكيم المركز أو ضابط النقطة ، على السواء . لا . أبدا . هذه البذاءة العارية فى عينى الرجل الصخريتين المسدودتين وفى تلمظ شفتيه الجسيمتين الدهنيتين ، فى تعليقاته الصريحة المفتوحة

ونكاته القبيحة المباشرة اللفظ ، انما هى شىء آخر يحس الجميع براحة اليه وبمتعة خاصة فيه ، كأنها محرمة قليلا ولكنها مسموح بها لأنها أساسية ، متعة تفاجىء يديك وصدرك أحيانا وانت تمسك عجل الجاموس اللبانى الغض لتذبحه فى العيد ، أو عندما تقبض على استدارة امرأتك المليئة المقببة كالعجين الدفىء الخمران ، تحت غطائه الثقيل ، وتغوص فى الليل ٠

كانت النظرة يحسها تثبته فى مكانه ، وكأنما تثقبه ٠ منذ بضع لحظات بالفعل ، أحس العينين الضيقتين العجوزين ، يقظتين رغم العشاء الثقيل والكونياك كأنهما متربصتان ، وجارحتان أيضا ، من تحت غطاء الحاجبين بشعرهما الأشيب المنتفش الحاد الشوك ، وهو يخرج السيجارة من علبة البلمونت ، بيديه السمراوين الشفافتين ، عظام الأصابع الطويلة لا تهتز ، ويمدها له ، بصمت وشىء من تقطيب خفيف يعقد الحاجبين الكثين البيضاوين ، كأنه يسمح له باقتراف الذنب أمامه ، أى ذنب ، كل ذنب ، الآن فقط ، فما كان الولد ، مهما كبر ، ليجرؤ أن يشعل سيجارة أو حتى يستأذن فيها ، ولو بعد العشاء والشرب ، الا أن يأذن له آبا ارسانى هذا الاذن غير المباشر ، ولو اضطره الأمر ، وحبك الكيف ، تعلل بأية حجة ، وخرج يشرب الدخان بعيدا عن نظرة أبيه الحادة ٠

انعقد الدخان حول مصباح الغاز النيكل الكبير

الدائرى المبطن ، بزجاجته الرائقة الطـويلة المستدقة العنق فى طول ، بعد انفلاتها من قبة الضـوء المنتفخة حول شعلتها الساطعة . واسـتند الرجال الثـلاثة الى المخدات ، وهناك من فوق، جلبة البنات والأولاد، ومعهم خضرة بلا شك ، فى معركة العشاء البهيجة ، وأخـرج الشيخ أقراص الدومينو من تحت الشلتة ، تحت كوعه . كانت المدفأة الفخار فى الركن تتوقد بصمت ووهج ، تبعث حـرارة تشـبع عظام الرجال فى المندرة المنيرة المنعزلة المقفلة على نفسها ، بطن مركب مضيئة فى موج النيل الليلى .

ـ والله الدفا عفا ياولاد .

ـ أى والله .. هابياك ..

ـ دوش .. سمعت يا سيدى جاموسة الناظر عشرت النهارده ..

ـ ايوه يا معلم .. وبيقولوا بنته كمان .. اتنين وستة ..

ـ تلاتة واحد .. ياراجل اتقى الله .. وبعدهالك يجى ..

ـ تاخد كاس يا آبا ارسانى .. كاس كمان يامعلم جورجى ..

ألقى عليه ابوه نظرة آخرى خاطفة ، ضربة مخلب

من صقر ، جاف ، وهز رأسه بالايجاب • وعلى الطرف الآخر من الشلتة ، كانت الأصابع الغليظة المدربة ، معوجة قليلا فى اكتظاظها باللحم ، تتحسس أقراص الدومينو بسرعة ، بين الابهام والسبابة • وتضعها فى مكانها ، والذهن الذى ينز بالدهن والذكاء معا يلتقط الرقم ، ويحسبه ، ثم تسحب الأصابع القرص التالى ، فى نفس اللحظة تقريبا ، وتسنده فى الصف الممتد على الشلتة المفروشة فوق الحصيرة • والصف يستطيل بسرعة ، ويعوج ، ويصنع زوايا حادة ، والحسبة تكبر وتصل الى نهايتها • وهو يرقب اللعبة وينشق دخانه يملأ به صدره المزدحم • كأس أخرى ، وتغيم عيناه قليلا ، وهذا الوضوح القاطع فى الأشياء لم يعد يؤذيهما • كأس أخرى ، ويتمهل الايقاع الوثير الممتلىء حتى لا تكاد تهتز موسيقى النهدين والردفين الناعمة ، ويتعش ذهنه قليلا ، ويغوص ، من غير دفع خارجى ، فى ردغة مبلولة طيعة • يتوقف جريه فى توتر السهم المنطلق المشدود ، دون أن يصيب هدفا • آبا ارسانى يضع خاتمة حساب اللعبة ، وقد كسبها مرة أخرى ، فمهما كانت براعة المعلم جورجى وذكاء أصابعه ودربته المشهود بها فى كل بيت ، دائما يكسبه آبا ارسانى ، ودائما يعابثه فى آخر اللعبة هو انت عايز تكسب كل حاجة ياجورجى ياخويا، فيضحك العريف ضحكته الجشاء ، الغليظة ، ويلتقط بين شفتيه السوداوين اللامعتين ولسانه حركة تلمظ كأنما هناك لذاذة متعات أخرى ومكاسب لا علاقة لها

بالحساب ، وما يزال يضحك ويهتز كرشه المدور فى القفطان الحرير من تحت البالطو الصوف ، اللهم اجعله خير ياولاد ، الله يجازيك يا آبا ارسانى ، خير ياسيدى، وانت ياسى فانوس اللى واخد عقلك .. خد ياسيدى ، جبت لك ميت مصلية من عند آبونا ، بركة من الكنيسة، خد ياخوى كل شيء بارادته ، عقبال ما ناكل ملبس الفرح .. فى حياتك ان شاء الله يا معلم جورجى ، خد ياخوى .. وفى عزك وعز آبا ارسانى يا واد ، ايه ، حناخد زماننا وزمان غيرنا يا جورجى بس ربنا يخليهم ، ويخلى لها أبوها ، والله زمان ياولاد ، فى صحتكم .. تتربى فى عزك ياسى فانوس ، اللى جاب لك يخليلك .. فى حياتك يا آبا ارسانى .

والأصابع الطويلة العجوز تقبض على الكأس المشعشع بالكونياك الأصهب ، بلا اهتزاز ، أظافرها القوية الصلبة بيضاء مصفرة من الدخان ، عاج قديم فى النور الأحمر .

ماذا نسميها ؟ يارب احفظها يا رب ، ابق على حياتها . هذه المرة ، كم مرة تولد وتموت ، أوشك الأسبوع أن ينقضى ، هل هو غدا أو بعد الغد سبوعها ؟ هل سيكون هناك سبوع ، ودقات الهون ، ورش الملح ، وهز الغربال بالحمص وحب العزيز . والقلة الحمراء بالشموع ؟ أخذ السطوع الوضىء فى ذهنه يخبو ، وتنوشه غاشية غيابات تمضى سراعا ، كأنه ينسى ثم

يعود يتذكر • مختارة ، صفية • وهيبة • جسم واحد صغير ، مضغة رقيقة تصرخ ، لما تكد تتحرك حتى تسقط ضاوية جافة ، مكسوة • حمل ما أرقه وما أهون ثقله ، يحمله ، كل مرة ، كل مرة يا رب ، على ذراعيه ، الى تحت • ويحمل الاثم والخطية ، معه كل مرة • لم يغمر الجسم الصغير الهش أبدا فى قلاية التنصير المملوءة بالماء المقدس ، لم يصل عليه أبونا فى الجبانة ، على الطرف الغربى ، هناك فى الآخر بعيدا عن بقية القبور ، ليس له الحق ، هذا الجسم الصغير المنبوذ الموءود المنتهك • ليس له الحق فى شىء ، الخلاص بعيد ، فى اليوم الأخير ، بنته الواحدة الكثيرة لا مكان لها فى الأرض المقدسة • ثلاثة ملائكة صغار ، بجانب المسيح • ينتظرون أبد الدهر ، أزمانا لا نهاية لها ، طوال قيام ملكوت الأرض ، حتى تأتى الدينونة ، ويأتيهم المسيح فى اليوم الأخير • يحملهن بين ذراعيه ، مسدود العينين ، ويقبلهن بشفتيه السوداوين ، يخلصهن للمرة الأخيرة بجسمه المصلوب المطعون القائم من بين الأموات ، ويقول لهن ادخلن معى ، الى ملكوت أبى ، الى بطن مركب مضيئة سابحة فى السماء الى أبد الآبدين •

ولم يستطع يوم الأحد الماضى أن يوافق على أن ينصر الصغيرة الجديدة ، ولا أن يعطيها اسما ، سوف يحتمل ثقل المخاطرة بالخطية مرة أخرى ، نعم • ورفض أن يأتى أبونا ليصلى ويرش كل شىء بالماء المقدس

ليطرد الروح الشرير من البيت ، لو قبل فانما هو بذلك سوف يعدها ــ هي أيضا ــ لمراسيم موتها ، من جديد ٠
لا ٠ لا ٠ تظل من غير تعميد ، من غير اسم ، كأنه يخفيها عن بصر مترصد يتلمس أين هي ٠ حتى ينقضي الاسبوع ٠ كأنه يخدع أحدا ما عن حقه الصارم القاسي ، ويختبيء بطفلته بعيدا عن هاتين العينين ٠ كأنها لم تولد بعد ، مغلقا عليها في لفائفها ، في الغرفة ٠ نعم ٠٠ ولكن معها أمها ٠٠ لا يستطيع أبدا أن يحسن اخفاءها عن كل عين ٠٠ عن كل خطر ٠٠ معها أمها ٠٠ معها أمها ٠٠

زجاجة الماء المصلى عليه ، بين يديه ، فيها تهديد ما ٠ شفافة ، وثقيلة ، ثقيلة لا تحتملها أصابعه ٠ يكاد يفلتها فتنكسر على الأرض ، ويتشبث بها مع ذلك بخوف وأمل ٠ يا رب ، اتركها لنا ، انسها يا رب ، اتركها لنا ، هذه المرة ، يا ستنا العدرا ٠٠ يا أم الطفل ، شفاعتك يا رحيمة ٠

ــ رحمة ٠٠ رحمة ، نسميها رحمة ، على اسمك يا أم المراحم يا عدرا ٠٠

مكتومة ، ندت عن نور مضطرب يبرق وينطفيء في ذهنه ، لكن عينى أبيه كانتا حجرين ، صلبين ، ثابتين عليه ، لا تطرفان ٠

ــ امتى تعزمنا على جوزين حمام ياسى فانوس ؟ واللا بس الحمام غية يعنى ؟ واللا يعنى الحمام غية ؟

وابتسم ، على الرغم منه ، بينما كان الوجه الأسمر المجدور اللحيم يتهدل وينكسر مرة أخرى في ضحكة السكر المهدودة المتماوجة · في الضحكة الحسية الخشنة ايماء بذيء بسخونة اللحم واندلاع شهوة مكتومة وهشاشة العظم الرقيق يتهشم بين الأسنان القوية ، وطراوة الصدر الصغير مع كأس الكونياك ·

ـ واللا الحمام غية ··

وهو يسعل ، ويكرر نفسه ، في غياب السكر ، ويهتز جسمه الضخم في آخر اندفاقات الضحكة المتحشرجة المكتظة ، لا تكاد الكلمات تخرج من أحشاء الضحك الممتلئة ·

ـ أبدا يا معلم جورجي ، وحياتك دا الحمام حتى خايب السنة دى ، ولسه ما عملش جوزين على بعض ··

ـ الله يا ابنى ما تشوف الحكاية ايه ·· لازم فيه عرسه بتخطفولك ·· واللا البومة اللى لابدة على رأس البرج ·· والله أنا سامعها بودانى يا آبا ارسانى ·· سامعها الليلة وأنا جاى حداكو من قدام الجنينة، وسامعها ليلة الجمعة اللى فاتت على طول ·

أى والله ، يجب أن يصعد البرج يوما ، ويخلص من هذا الهم الآخر ·· حكاية البومة هذه ، أو العرسة ، أو الحدادى أو الصقور ، ما من أحد يدرى ·· تقتل أفراخ الحمام أولا بأول ، وعندما يذهب يطل عليه

لا يجد الا الريش الصغير ملوثا بدم جاف قليل ، والأصابع الصغيرة الملتوية فى القدم المقطوعة ملقاة بين لفائف ورق الجوافة الذابل ٠

كانت العينان الواسعتان المضيئتان تنتظرانه ، فى عتمة الغرفة العلوية ٠ وهو يدخل ، يحمل المدفأة مازال يتقد فيها الفحم بناره الحميمة المكنونة ، عليه طبقة رقيقة بيضاء من الرماد المشقق الناعم ٠ وضع المدفأة ، بحرص ، على الأرض ، كأن كل حركة منه زلزلة فى الغرفة وفى جسمه كله ، ولزام عليه أن تكون كل اشارة وكل ايماءة ، وكل انحناءة ، موزونة محسوبة ، والا اختل توازن هش ما ، وتقلبت أعاصير ثقيلة متربصة ينبغى أن تظل محتبسة راكدة ٠ لا ، لم يشرب أكثر مما ينبغى ٠ وابتسم ، أو لعله شرب ٠ وماذا يعنى ؟ عندما صلب عوده ، صدمته العينان المدورتان صدمة أخرى ، من على السرير بأعمدته النحاسية وملاءة التيل البيضاء التى تدور حوله ، وتتدلى ممزقة هنا ، متهدلة هناك ، وان كانت مازالت توحى له ، بمجرد تهدلها الثابت دون اهتزاز ، بعمق لياليه التى لا غور لها ، محتشدة بالجوع والجنون والمضض والحبوط وسورة الأيادى والأطراف وتلويات حيوانات الأجسام وصرخاتها وتحليقها مشرعة المخالب مفتوحة الأفواه ٠

فى فتح الباب ، اهتز خشب الشباك وأخذ يصطدم، وهو يرتج من عصف الهواء ، اصطدامات سريعة متلاحقة

بأركان الحائط وبالأكوام الصغيرة التى تسنده ، ونفذ منه فجأة تيار متقلب لافح البرد ، فاستدار يحشر الباب فى حائطه ، فيحتك التراب بالأرض غير المستوية • وانقطع تيار الهواء ، فكسل عن أن يذهب للشباك ، كما كان فى نيته ، يعيد احكام اغلاقه بالخرق يدفعه بمشقة الى مستقره من الحائط الطينى •

ومازالت العينان المدورتان المشعتان فى عتمة الغرفة تحيطان به ، فسيحتين ، دافئتين ، مياههما راكدة حوله ، تحاصرانه • وخطا الى السرير يسبح فى عنصر العتمة يحمله متموجا خفيفا ، صاعدا هابطا فى رفق ، من غير جهد ، ولكن في احتياط واتزان دقيق • وعندما وصل الى مرساه غاص جسمه قليلا تحت ثقله نفسه ثم هب هينا ، يجذبه بمجرد الاستسلام له ، الى أعلى •

وألفت عيناه العتمة ، وعظام الوجه الهشة الحادة ، وفى وسطها بركة العينين الصامتتين ، وشعرها المجعد غير المسرح ، فى خصل صلبة تقريبا - سقط جانب وجهه على المخدة ، بطنها هش مشفوط ، أضلاع صدرها تبدو ترائبها تحت الجلد الأسمر المشدود الغض ، وفتحة القميص الرمادى الخشن واسعة ، فى طرفها تصلب قليل حائل تلمسه العين ، من بقع لبن جاف ، وتحته وجه الصغيرة ، فى لفافتها ، تمص حلمة الثدى بشره مصمم غائب عن كل شىء آخر ، واليدان الدقيقتان تتلمسان الثدى الصغير ، تتكشفانه وتدعوانه وتتطلبان

منه ، والوجه المحتقن محبوس الدم ، داكن ، لاهث ، في كتمة الرضاع الدؤوب الذى لا يهن تصميمه وتلمسه . ارتعش قلبه لها ، والشفتان شرطتان ملتصقتان على الكرة الصغيرة التي تنبض بالحياة ، قابضتين ، مدفونتين في اللحم المضغوط . الذراع العارية القوية تحيط بالصغيرة ، عظمة طويلة ناعمة مكشوفة منفلقة ، معقوفة حولها ، تحملها على جناح ناحل محرود ، أصابعها تلتف بالرأس الصغير ، ثابتة الأظافر ، حول عظام جمجمة لينة معوجة ، تنبض ، ناصلة الزغب .

قال لها تأخرنا هيا بنا فقالت نعم تأخرنا هيا بنا . ووقفت ، ما زالت شاحبة قليلا من آثر الولادة ولكن نشطة في الظلام وأحسها تعد نفسها للخروج .

كان مستعدا . وكان ثم قلق ناهش أيضا لا يكاد يجعله يطيق الانتظار لحظة .

قالت له الليلة ؟ قال نعم لم يعد الا الليلة .

قال الانتظار لن يؤخر ولن يقدم قال لها ليس أمامنا الا الليلة قال سنخرج ، سنخرج الآن . شوارع القرية مظلمة تسفعها ريح متلاطمة نفاذة البرد . وحدهما يحملهما احساس بالفقدان ، وضرورة الاستدراك . الآن . ليس معهما رحمة .

ومع ذلك ففى حسه ان الصغيرة قريبة منهما ، وأنهما انما اليها يخرجان ، وهى وحدها وجهتهما ،

يعرفان أين هى ، ويتفقان فى معرفتهما ، دون أن يقول أحدهما للآخر عن معرفته شيئا .

فى نصف الليل خرجا اليها ، يخوضان فى قلب القرية وحواريها ، تجابههما . فجأة حيطانها المصمتة المسدودة ، ويرقيان، بلا جهد، أكوام السباخ وينحدران فى السكك الضيقة المتعرجة اقدامهما مع ذلك لا تحس موطئا على الأرض .

الغرض الذى يحمل ثقلهما ويدفع بهما الى الامام يحيط بهما ، غير مرئى ولكنه محسوس لا يقاوم .

ويهب الهواء بفستانها الاسود المترب ويلتصق باستدارات الهيكل الشامخ الناعم الأحجار ، وفى خطوته السريعة المنتظمة الايقاع تتوفز ذكورته من جديد ، فى حموة داخلية ، فى توق الى الصدر الوافر يهتز بحرية وثقل لدن تحت النسيج الذى يتكور حوله من دفعة يد الهواء ، والبطن المقبب الراسخ القوى ، والساقين العاليتين المستلثتين ، بقدميهما الحافيتين الكبيرتين الخفيفتين مع ذلك .

لكن العينين واسعتان ، مضيئتان ، جارحتان ، فيهما ابهام وصمت ، ناعمتان مع ذلك ، فيهما نداء وخضوع . لمن العينان ، وما الوجه ؟ الهش الطويل بشعره المجعد ، طبقة آساسية سفلية من العظام الحادة تحت وجه آخر ملىء بنعمة الدسامة فيه سمرة الشمس

ورائحة الخبيز والحليب وروث الجاموسة السخن .. خضرة .. خضرة .. العينان السمراوان تنظران اليه بالحاح ، ودعوة . نظرة الأنثى العارفة الفاهمة ، كأنها تقول له تعال ماذا تنتظر مني أن أفعل .

قال حنونة نحن نذهب الى بنتنا ونحن نعرف أين البنت ، خرجنا لنستعيدها قبل أن يطلع عليها الفجر البارد . العينان صامتان ، فيهما ثبات محايد ، والتى تسير الى جانبه ، ومعه : هى كلتاهما معا ، وقد انحل كل تعارض ، ولم يوجد ، لم يوجد قط ذلك الصراع الذى طالما عذب قلبه المخنوق ، لم يرتعش جسده أبدا للمسة يدها الخشنة وهى تسلم عليه من تحت الطرحة كلما جاءت فى الصبح عواف يا معلم فانوس بصوت فيه طراوة وتمنع ما ، لم تسخن أحشاؤه أبدا تحت وقدة جسمها الفارع الخصيب وهى تنحنى أمام الفرن ، وتركع تحت الجاموسة ، وتعجن الجلة ، وتأتى بصفيحة الماء من حنفية المشروع على رأسها ، يشر الماء من صفيحها الأبيض اللامع فى شمس الصبح الباكر ، بل هناك الآن شبع عميق وتملك ورضا ، وقد اندست رجولته ، مرارا ، لا حصر لها ، فى هذا الجسم الوثير الهش معا ، تحت هذه النظرة الساكنة المغوية معا ، فى هذا البطن الوفير الهضيم معا ، تحت هذا الوجه الغض الشاحب المشدود المشرق معا ، فى ذلك الكيان الأصلى القديم المشترك المعذب المحبوب الذى لا قلق فيه أبدا .

وقفا فجأة ، فى نفس واحد ، لم يتبادلا كلمة

ولا نظرة ، وسكت الهواء مرة واحدة • كان البرد هادئا ، رازحا تحت سماء نصف مقمرة بها غيوم قاتمة مقطعة كأنها ملتصقة بجلد السماء المتوتر الناشف ، ظلال القمر السوداء تسقط على صلابة الأرض ، حالكة السواد • من ورائها سور السراية القديمة ، حجر ضخم رمادى مرصوص ، تقع عليه فضة القمر المصبوبة ، تحدد خطوطه وتعرجاته وأليافه الخشنة وحباته الرملية البيضاء التى يتقشر عنها جسد الحجر •

البيبان مغلقة والشبابيك مظلمة ، والفناء وراءها فيه نفح الهجران والخواء ، واسع موحش بأشجاره العالية الأثيثة • واصطفق مصراع نافذة على غير انتظار فى الصمت وسكون الهواء ، وخبط بحجر الحائط ثم ارتد ، ليس هناك أحد يغلقه أو يفتحه •

فى ذهنهما شىء واحد مشترك : لا ينظر أحدهما الى الآخر الآن ، أبدا ، أبدا • شىء يعقل لسانه عن أن يقولها ، بينهما اتفاق معقود قديم •

وهو مع ذلك مهموم معنى مدفوع به الى آن يتكلم ، الى أن يفتح فمه ، وفى حسه انه بالصمت وحده يحوط على كنز ما ، يصونه من الفقدان ، وله عندئذ أمل فقط فى الخلاص ، وانه مع ذلك مشدود مشبوح بالرغبة فى أن يلتفت اليها ، ولكن الأمل الانانى الذى يخزى له قلبه ، يكبحه ، وهو يكز عليه بقبضة أسنانه فى وقت معا •

عليهما أن يخطوا الآن ، الآن دون انتظـار لحظـة واحدة ، على هذه القنطرة الخشبية فوق ماء الترعة ، الى الشط الآخر • دون نظرة للوراء • هناك ، بعيدة ولكنها مرئية تملأ العين ، لفة صغيرة سوداء في دائرة الفضـة الراكدة ، مرمية على الرمل المرتفع الأبيض ، وسـط الخلاء • فى مواجهة السراية •

لفة صـغيرة يمتد اليها كل قلبه بأذرع مشـدودة أصابعها ترتجف من فرط التوتر ، محبوطة ، في فراغ أحشائه • ظلال سور السراية وفضتها تنعكس فى مرآة الترعة الخضراء الداكنة ، غائرة ، ذاهبة الى أسـفل ، حتى نصف القمر الذى يسطع مقلوبا فى عمق سحيق ، بين الغيوم الواقفة السوداء •

ظلال السراية كلها ، بأبراجهـا المـدورة الحجرية الواطئة ، بنوافذها المسدودة ، وبابها الخشبى الضخم المنحوت بنقوش دائرية هندسية ، فى وسطها صـليب بارز مربع الأضلاع ، وحول أطرافه استدارات كأجسام الزهور ، كلها محـددة دقيقة المعـالم ، تحت ، فى ماء الترعة • انت تعرف ان هذا القصر لا وجود له ، وراءك ، معرفة اليقين الذى لا يحتمل الشك • وأن كان لا يمكن أن تلتفت الى الوراء ، لا يمكن ، تحت تحـديد خطـر صارم تعرفه ، ومع ذلك لا تعرف كنهه • لا تعرف ماهو ، لكن تعرف انك لا تسـتطيع أبدا أن تلتفت للـوراء ، وتتمنى من أعماق قلبك أن تكون هى أيضا عارفة •

نعم ، بل هي تعرف ، ولا يمكن أن تنظر هي أيضا ، اليك ، والى السراية • أنفاسك المكتومة تتسارع من رعب القلق ، لا تنظري •• لا تنظري •• شط الترعة يتحدر هينا ، ومرآة الماء المخضرة صافية الوجه ، الباب أمامك الآن ، تحت ، في الماء ، ما عليك الا أن تنزل من على خشب القنطرة ، أن تخطو على تربة الشط الرملية المخضلة المتماسكة ينز عليها ماء خفيف ندى ، وأن تهدى خطواتك في العالم المقلوب تحت الماء ، الى اتجاه باب القمر تماما • انت وخذك •

هي تفعل نفس الشيء أو هي تفعله معك ، في وقت واحد • لا تراك • ولا تراها • ولكنها معك ، هناك ، هي في داخلك ، وخارجك معا • لا تراها وهي ملء عالمك ، دون أن ترفع بصرك ، معا خطوة بخطوة ، تحت السور العتيد ، الذاهب الى ارتفاعه المعكوس تحت ، في السماء المائية نصف المقمرة • حتى اذا وضعت قدميك أمام الباب مباشرة ابتلعك القصر فجأة ، ووجدت نفسك في داخله ، في داخله ، في الفناء ، تحت السماء هناك ، وأغلق الباب وراءك دون صوت ، ودخلت ولم يعد هناك أمامك ولا وراءك شيء ، لم يعد هناك باب ينفتح لك مرة أخرى أبدا ، لم يعد هناك الا السراية المهجورة الخربة ، يحيط بك سورها المتهدم العالي ، لا منفذ منه ، لا ثغرة فيه ، انت في الداخل ، لا مخرج لك أبدا ، تظل تدور في البرد الثقيل الصامت ، تحت الأشجار المتكاثفة البالية ، وعلى الأرض ورق الشجر قد سرى العفن الى

الأرض المخضرة بالطحلب تحتــه ، عطنت ثمــار البلح والجوافة القديمة التى ســقطت بين طبقــات الــورق المتراكم من سنين عديدة ، جف وصوح فوق طين آسن ، تدب فيه حشرات الأرض البليــدة الســمينة وعنــاكب سوداء ، بطيئة بما تحمل فى بطنها من تخمة العفن .

فى هــذه الممرات ، بين أشــجار عجــوز عليك أن تدور ، دون نهاية ، تحت النــوافذ المظلمــة ، لا باب هناك . لا ، لا .. آبدأ . لا ينحدر خطوك الى الماء . حنونة تشبثى بخشب القنطرة ، لا تنزلى ، لا تنزلى معى ، لن أنزل أنا ، أبدا ، أبدا ، هناك ، أنظرى ، على الشط الــرملى الأبيض بنتنا . ذراعاه ممــدودتان ، عينــاه مشدودتان ، قلبه مشبوح مسلوب ونظره معلق بالقامة النحيلة الشامخة فى الجلابيةالسوداء ، على وسط خشب القنطرة المقوس قليلا ، مرتفعة عنه ، تنظر اليــه من فوق ، بعينيها الواسعتين فى القمر ، صــامتتين ، دون غواية ، ودون ادانة .

والحدادى العريضــة الأجنحة تدوم وتحــوم تحت صخور الغيم فى السماء ، هائلة الأبعــاد فى انفســاح جناحيها ، تدور دورات متتالية هابطة ، وهى تتضــخم ويتسع انبساط جناحيهــا الساكنين دون حــركة ، ثم تنقبض بصمت ، ونعومة . على اللفة المرمية وســط الرمل الأبيض المرتفع ، وراء الشط الآخر ، وترتفع ، مناقيرها خالية ، وتحلق الى علو بعيد ، ثم تعود ، وتعود ،

وتعود ، دون صوت في كل مرة ، ليس في مناقيرها المزع الممـزقة التي لا يطاق مرآها ، في هـذه الدورة التي لا تنتهي .

في اللحظة التالية كانا معا ، تحت الماء ، في الترعة العكرة السمرة ، وقد انعقدت الظلال وبقع الفضة السائلة معا ، واندمجت ، وتقلبت في اهتزاز الموج البطيء . والماء قابض وضحضاح ، والأرض تميد تحت جسميهما ، لا تكاد ، لزجة ، رملية ، ويشبان معا ، ويخبطان بالأذرع ، ولا رشاش هناك ، يحتفظان بالوجه فوق الماء ، يشهقان في طلب النفس ، ثم ينقلبان في الماء معا ، دون غرق ، يحتضن بين ذراعيه الجسد المبتل الذي التصقت به الثياب وارتسمت كل تفاصيله تحتها ، في شفافية محسوسة ، تدفعه ليلتصق بكل استدارة فيها ، ويطفوان معا ، في تموج متماسك ، متمددين ، يحملهما الماء دون جهد ، ولا يخرجان فوق سطحه ، والماء قد انحسر بجلبابها الطويل عن ساقيها المستديرتين اللامعتين من البلل ، في لحمها ، تحت يديه ، بضاضة جديدة طازجة تومض في عتمة الماء المقمرة نصف الشفافة ، والقمر يلوح ويختفي الآن من فوق الموج ، يشع وينطفيء ، قرصه نصف الدائرة يهتز ويتساءل ويذوب ويعود الى الاستدارة الساطعة الصلبة الحدود .
والزمن طويل ، وخاطف ، ولا حس له به ، وذراعاه العاريتان تحيطان بالفخذين الشامختين تحت الثياب

المبتلة ، وجهه غارق ، توتره الراضى المرتاح لا ينتهى ، وفي فمه طعم الماء واللحم العذب المضطرب :

قال لها تأخرت كنت أريد الخروج مبكرا قالت له نعم تأخرت لا تريد أن تفطر قال لها افطر فيما بعد قالت نعم وكانت الشمس وراء الحوض الشرقى هناك ومع ذلك لا يبدو انها قريبة الشروق كأننا ما زلنا في أول فجر دائم مقيم لا يتحرك معتم وشفاف معا والسحاب الرمادى الزرقة مشعث الأطراف والهواء الباكر يسف بالتراب من على صحن الجرن الواسع النائم بحفرته العريضة الغائرة الجافة ، والبيوت حواليه مائلة متساندة رثة فى نصف دائرة مضطربة تهبط أرضها وترتفع حول الجرن .

وكان يسير مسرعا محنيا رأسه أمام ضربات الهواء الجاف ، البرد غير مشبع وغير بليل يخز العظام المرهقة الخاوية ، والفلاحون يلتفتون اليه فى طريقهم للغيطان، وعلى أكتافهم الفئوس والمخلاة الخيش والمقاطف .. السلام عليكم وعليكم السلام ورحمة الله ، لا يعرفه ، أو لا يذكره ، وهو يقضم فحل بصل فى يده الضخمة السوداء المفلطحة الأظافر ، خشن الوجه من النوم ؛ على رأسه منديل معقود ، ومن ورائه تأتى عجلة مسرعة والجلباب يطير بين الحيطان المصمتة . وانجرف فى السكة المؤدية الى الجنينة ، وهو ينزل وساقاه تتقاربان وتتداركان فى سرعة تحدر السكة حتى وصل فجأة امام دكان الطوب النيىء المفتوح على الجرن من الناحية

الأخرى • كان الرجـل غارقا فى حفـرة طينيـة لزجة واسعة ، وحواليه فى الدكان قوالب الخشب بمستطيلاتها المتجاورة الفارغة ، ملقى بها على الأرض ومنصوبة على الحائط الرمادى ساقاه تغوصان حتى ما تحت الركبتين، كأنه على عتبات النزول فى البركة المحفـورة التى تنز بماء قليل صدىء ثقيل الوزن • وهو يعجن الطين والتبن بذراعيه المفتولتين الملطختين بالوحل ، ينحنى بصـدره القصير المدكوك المتين ويعتـدل ، يمـلأ فراغ الدكان ونصفه مدفون فى الأرض ، قميصه مقـور الفتحـة ، مقطوع الكمين ، أسود جاف متصلب ، وذقنـه الـكثة تخفى فما واسعا غليظا تحت الشارب الغزير الحالك ، عيناه حفرتان عميقتان ، وهـو يلقى بالسـلام ، كأن فيهما لمعة سخرية •

وعندما خرج الى الزراعية فى طريقـه الى جنينة الجوافة كانت السماء مازالت كاسفة الزرقة ، كابية ، باردة ، مسجاة • كانت الساقية الحديدية بلونها البنى المحروق صامتة مبلولة الصدأ من ندى الصبح ، تشـق البئر وترتفع تحت ظل شجرة التوت العريضة الجاثمة ، حيث نور فجر أكثر عتمة وأقل شفافية ، والى جوارها خيمة العساكر بيضاء باهتة ، تبدو متهدلة غير مهمة ، وبجوارها عربة الجيش المصفحة ، ودبابة صـغيرة من طراز قديم كأنها لعبة معدنيـة بلونهـا الأصفر المطلى الجديد ، ولكن مدافعها الرقيقة الطـويلة الارتفـاع ، تحمل كلها قوة كامنة متربصة تحت المعدن الذى يبدو

مع ذلك هشا ، وعليه أرقام وحـــروف لا يكاد يقرؤها من بعيد ٠

منذ مدة طويلة والاخبار والاشـــاعات تجرى بأن اللجنة قادمة للتفتيش ، ولكن العمدة يضحك ويهت فى الناس ٠ جاءت اللجنة أخيرا اذن ، ومعها قوة ٠ كنا نظن انهم سيكتفون بمندوب الاصلاح فى المركز ومعه عساكر الأمن وضابط من المحافظة على الأكثر ، ولكن هذه هى اللجنة ، ومعها قوة ٠ يا فرج الله ، لابد انهم أجـــروا التفتيش الليلة الماضية فى السراية ٠ أخيرا ٠

أمامه اليوم عمل كثير ، وسين وجيم ، ينفض ما على قلبه ٠ ليس لديه اثبات ، صحيح ، لكنــــه عـــلى يقين ، وسيقول ، سيتكلم بالعقل يا وله ٠ بالعقل يا فانوس ، اوع تصرخ أوع تهبل، ما عليهم الا انهم يطلبوا الدفاتر كلها ، والفـــلاحين كلهم ، ويحققـــوا ٠ وســـيعرفون ، سيعرفون ٠

هل يتكلم الفـــلاحون بعـــد الصمت الطويل ؟ هل يتكلمون أخيرا ؟ ويقولون عما فى القلب من هم وغم ؟ والعمدة هل يكون موجودا عند سماع الأقوال ، ويشخط وينطر ، ويجيب سيرة الآباء والأمهات والأخوات هـــــل تنفك عقدة اللسان ، ويكشــــفون الــــورق ، أم تطويهم اللعبة من جديد ؟ فيهم ، نعم فيهم عيال بقلب جديد ، وألسنة كالكرابيج ٠٠ آه يا ولاد ، لو أفش غليـــلى ، وانقع السم عن قلبى ، وآشوف فيهم يوم ٠

دفع باب الجنينة وخطا بين أعواد حطب الذرة النحاسية الداكنة القشرة على التراب ، فى تقطر نور الصبح المبكر ، تحت السنطة القديمة المجعدة بعقدها الخشبية الناتئة ، وبين أشجار الجوافة القصيرة ، مصفوفة ، منشعبة ، فى خطوط هندسية ، والممرات التراب بينهامغطاة بأوراق صفراء ومخضرة هشة ضامرة تخشخش تحت قدميه وتتهشم ويطير بها الهواء .

وملأ عينيه البرج الجاثم الطينى ، بثقوبه الصغيرة ، رازحا ، دائريا ، عريضا ، من تحت ، يستدق وهو يرتفع ، وتبرز من أعلاه نتوءات خشبية من كل جانب ، كأشواك فى جانبى فم حوت برى ، جسده من الطين النيىء . وأسند السلم الخشبى النقالى الى جسم البرج المتين ، وراح يرقى العوارض الرقيقة الحرجة ، ممسكا بقائمتى السلم الجانبيتين ، يدرج ، فى كل خطوة الى أعلى نحو سماء مسفة هابطة اليه ، مهددة ، وقد أخذت هبات الهواء تصفر ، وترتطم حواليه ، وتلصق جلبابه الصوف بجانب صدره مرة ، ثم تنفخه وتملؤه حتى يكاد دفع الهواء يحمله ، رغما عنه ، ويلقيه الى تحت ، فى هوة الفراغ ، نحو الأرض التى تبتعد ، وتصغر ، وتبدو تحته قاسية ، غير مرحبة ، بأشجارها المصفوفة التى يرى ، من فوق ، نواصيها المتكاثفة تبرز منها الأغصان المدببة العارية الأطراف .

الغيطان تحته ، وهو يرتفع ، موحشة ، خاوية ،

نائمة فى نور مبهم، زروعها قصيرة ، مقرورة ، ترتجف، والقنوات بينها متعرجة بمياه مسودة ، وهديل الحمام رتيبا ، ملحا ، يتردد فى السماء المغلقة ، يخطفه الهواء منه ، فيخفت ويبتعد ، ثم يعيده اليه فى نفحة باردة ، متضخما يملأ البرج والسماء معا بطنين ناعم مستمر مضطرب ، وخفق الأجنحة فى هياج الريش الوثير الرقيق ، وهى تتضام على قباب الصدور الممتلئة بشهيق متخم بالأنفاس المختزنة ونفث الهديل ، بزغبها الملون المتقلب الألوان فى النور المكتوم ، يتموج عليه الريش الناعم رماديا ورصاصيا وأزرق وأبيض ومخططا بخطوط منسابة اليفة • وهو ينظر فى كل خن ، ويمد يده الى الدفء الضيق النزخم برائحة الزبل الجاف الحريف ، ويتحسس العوارض الخشبية الناتئة من البرج ، تحت يديه ، قوية الألياف ، متينة ، عليها بقايا الزبل الأبيض فى تخثرات صلبة الملمس مشعثة الحواف تتبدى بينها فجأة عضلات الخشب الخشنة الرفيعة المفتولة محترقة من طول التعرض للبلل والشمس •

ويطير الحمام من على العوارض ومن الثقوب ، ثم يعود ، أيسير متئدا برشاقة متحيرة ، يدير رأسه كل ناحية ، وينقر تحت جناحيه وفى صدره بالحاح وبحث. ويغوص برأسه فى الصدر الأصهب الأبيض ، غارقا بعينيه فى نعومة الشعر ، والعصافير تزقزق ، متفزعة خفيفة لا وزن لها ، ويأتى اليمام البرى نحيلا ، ينظر اليه كأنما لا يكاد يقبل وجوده هناك فى العلو الفسيح

الذى ليس له مكان فيه ، يرتفع باستمرار دون وصول، ويظل يرتفع ، بلا نهاية . اليمام الذى لا تربطه به رابطة ، كأنما يتنازل حين يرضى بأن يجسو ماءه ، أو يلتقط الذرة والغلة من برجه ، طليقا ، غير مقيد بحب الناس .

استدارة البرج تحت يديه دافئة فى الصبح الغائم الشاتى ، بطينها الجاف المخطط بخيوط التبن النحاسية، وهو يتحسسها ، ملء ذراعيه ، فيطير الحمام قليلا الى بعيد ، ثم يعود الى العوارض الخشبية ، ويهرب الى الخن المعتم الداكن ، ما يزال يهدل وينوح بايقاع رتيب لا يفرغ أبدا . قدماه تهتزان على عارضة السلم ، وهو يعلو يسند جسمه كله ، لحظة ، الى الجدار الممتلىء فى دورانه العريض البطىء . يسرى اليه ، من الحياة التى تعمر داخله ، دفء ناعم ينبض فى آنين خافت مستمتع . وجهه قريب جدا من الحائط الطينى ، فى عظامه جوع الى الاقتراب منه ، والتمرغ على صفحته البضة المتلقية . الجسد الطينى الباذخ يصعد الى الهواء ، شامخا ، من فوق عينيه الظامئتين المحترقتين . يحتضن البرج احتضانا وثيقا متشبثا كأنه فى قبضة صراع قاتل لن يسلم فيه أحد الطرفين .

لا يكاد يرى قمة البرج ، تتخايل له ، على السطح المقبب البعيد ، عينان واسعتان فى عتمة غير مستبينة ، والأيدى بمخالبها المقوسة تقبض على ذؤابة قلبه ،

وتعتصره ، تلقيه ، فى عناق الصراع الصموت ، شلوا جافا فى ظلمة مقفلة أرضها من طين ناشف عار . انها هناك ، جاثمة فى مأواها ، لا تنال ، منيعة لن تطولها يداه قط . لن يستطيع الصعود اليها ، وهو يرفع جسمه ، بجهد ، الى العارضة الأخيرة الصغيرة فى السلم الذى يتذبذب أهون ذبذبة، لا يكاد يتأرجح، ولا يسقط . ويمد عينيه الى الخن الأخير ، وقلبه يهوى منه ، ويتردى، فى معرفة سابقة بما يراهَ ، ويراه حقا فى عتمة السكن الصغير الخاوى ، رأس الحمامة الصغيرة المعوج العظام ، ملقى به على الطين ، مبتورا . على جلدته الشفافة زغب مشتت هش . والقدمان الصغيرتان ، بأصابعهما الدقيقة الحمراء ، مقطوعتان ، لم تكد تنبت لهما المخالب الصغيرة الوديعة ، مشلولتان ، ملتويتان ، كأن الحياة قد غاضت عنهما فقط منذ لحظة . وكومة صغيرة من ريش متناثر، الحمامة الصغيرة افترستها ، قبل الفجر ، نظرة ثاقبة ، صلبة قاسية . وكأن فما فاغرا فى داخله ، محفورا فى جدار نفسه يصرخ صرخة طويلة لا تنتهى ، تنوح بلا أمل ، يتردد صداها ، حتى الأفق الغامض بين دغلات الأشجار الصغيرة فى البعد ، المثقلة بأحزان الصباح الجديد .

لا يرى شيئا على سطح البرج المكور المصقول ، لا يجد على الجدار القاحل المسدود ، ذراعاه تعانقان . بلا جدوى ، ولا تحقق ، استدارة دافئة ناعمة ولكن متماسكة لا تلين .

ونظرته لا يستطيع أن يحولها ، من وراء استدارة البرج التى تسد نصف الأفق ، عن المرتفع الخشن بنباتات الحلفاء الشائكة ، تمتد جنبه وتحته مياه النشع الملحى المهجور ، والطين المغطى بكسر من الملح الصلب الرمادى يلمع فى نور الصبح الغائم · وعلى المرتفع نتوءات القبور المستطيلة المحدبة الظهور ، بصلبانها المعوجة الساقطة ، صغيرة ، مهملة ، لا أهمية لها ، تحت الأغصان الملتفة المتراكمة ، المضرجة بنقط دموية قانية ، غضة الاحمرار ، في الأشجار الكثة الوحشية ·

الاسكندرية

٧ سبتمبر ١٩٦٩

في الشوارع

كانت العينان اللتان تنظران اليه قاسيتين ، معاديتين ، يعرفهما طول عمره • تواجهانه ، بصمت ، من غير لغة • ولا يريد أن يرد عليهما •

وكان مس الموسى ينزلق على صفحة وجهه الغارقة في رغوة دمثة • معجون الحلاقة له لذعة خفيفة على الجلد ، احتكاك الموسى بوجهه ناعم نظيف مريح • وفى الحمام هدوء ضوء الصبح النائم، ويأتيه فحيح البوتاجاز خافتا من بعيد ، تحت ماء يغلى فى أمان • وقد انجابت فرقعة أتوبيس المدرسة من قليل ، وذهب يحمل الأولاد وهو يعوى بزمارة دعية صخابة ، ويرتج لمروره زجاج البيت •

ربنا يستر • لعله لا يطلع عليهم فى الطريق ، وتحدث حادثة •

هذا القلق نقطة صلبة خشنة الحواف لا تنحل ، ولكنه ، بشكل ما ، ينعمه ويصقله ويغطيه ، لا يذيبه ولا ينساه ولا يتجاهله ، بل يقبله ولكن يدفعه بعيدا

تحت طبقات أخرى من الرجاء والتعلل بالثقة من انه لن يحدث شيء ٠٠ وماذا بوسعه أن يفعل ؟ كل الناس تتكلم ، ولكن الصحف والاذاعة والتليفزيون لا تقول شيئا ، باصرار ٠ لا أحد من معارفه أو أصدقائه أو أقربائه رآه رأى العين ، أو سمعه بالفعل بأذنه ٠ كل الناس سمعت من مصادر ثقة ، كل الناس عرفت من أصدقاء وأقرباء لا يمكن ولا مصلحة لهم أن يكذبوا أو يروجوا اشاعة لا أساس لها ٠ سلطات الأمن تعمل ليل نهار وقد جندت قوات خاصة لتعقب حقيقة الأمر ، ولكنها تحرص أن يكون ذلك من غير اعلان ، حتى يأتى اليوم المشهود ٠

وهو لا يكاد يصدق ، أو يصدق ٠ ولكنه لا يعتقد ان الأمر يمكن أن يتعلق به أو يهمه مباشرة ٠ قد يكون صحيحا ٠ لعله فعلا يمر بالشوارع ، هناك ، بعض الشوارع ، ولعله فعلا يهاجم الناس ، ويقع المصابون ، ما من أحد رأى شيئا حقا ٠ ولم يظهر فى طريقه على أى حال ، ولا طريق الأولاد فى المدرسة ٠

صحيح انه التقى ، بمحض الصدفة ، باثنين أو ثلاثة من معارفه القدامى ٠ وكانت الأخبار قد ترامت اليه انه اعترضهم فى الشارع ، وان شيئا ما قد حدث ٠ أصابتهم جراح ، ويقولون انهم يحملون آثار تشوهات ٠ لكن لم يكن يبدو عليهم شيء ، لا أثر لجرح ، أو صدمة ٠ لعلهم يحسنون اخفاءها ٠

كانوا حريصين على أن يظهروا بمظهر طبيعى جدا أكثر قليلا مما يمكن لك أن تنتظر • وسلم عليهم هو أيضا ، بحرارة أكثر قليلا ـ قليلا جدا ـ من المعتاد، وتبادلوا التحيات والمجاملات وأنهوا ما هم بسبيله ، وانصرفوا • لم يشيروا الى شىء ولو من بعيد ، لم تجر كلمة بينهم عن الموضوع كله • هل فى نظرتهم شىء بعيد ، غائب ، أو مكتوم ؟ ربما كان هذا كل ما فى الأمر • وهم يستحقون ما وقع لهم على أى حال ـ ان كان قد وقع لهم شىء • لماذا يتصدون له ؟ لماذا يخرجون اليه ؟ ما لهم هم ؟ فاذا كانوا قد ذهبوا اليه ، فى سكته ، عمدا أو عن غفلة ، فلعلهم كانوا قد حسبوا حسابهم ، من الأول • ونالوا جزاءهم على كل حال •

كانوا اذن قد قبلوا المخاطرة والنتيجة الضرورية للمخاطرة ، أو استحقوا ما يجرى للغافلين • ماذا حدث لهم ؟ ما تلك التجربة يطوون عليها نظرتهم المرتدة الى الداخل تتجنب الالتقاء والمواجهة ؟ ماذا يمكن أن يحدث ـ على أى حال ـ فى الشوارع الصيفية الضيقة الغاصة المحرقة المتراكبة بالحر والزحمة ؟ بين الأوتوبيسات المتوحشة الثقيلة الهاجمة ، والبيوت القديمة جففتها الشمس واغبرت بتراب خفى عنيد صفحات وجوهها الذابلة المتساقطة الجلود ؟ بين مواكب الناس المدومة المختلطة المتشابكة التى لا تنتهى بالجلاليب والقفاطين والفساتين والملايات والبنطلونات والبلوزات، بالجزم والبلغ والصنادل والأقدام الحافية ، أمام

الدكاكين المفتوحة وسيارات النقل الضخمة المشعثة الحمولة ، بين عساكر المرور بعصيهم القصيرة ووجوههم السوداء الغارقة فى الملل والعرق ، على الأسفلت المشقق ، وجزر البلاط الضيقة الشريطية وسط الشوارع، والخضرة المصفرة الساقطة ، وأوراق الصحف والنفايات المتطايرة وأكوام التراب الصغيرة.، بين أكشاك السجاير والبضائع المستوردة ، والكتب والمجلات الملقاة على الرصيف ، بين الأنوار والصفافير والسيارات اللامعة ، والتاكسات المكسرة ، والعربات الكارو والتراامويات وعربات الفاكهة والفجل والجزر ؟ ماذا يمكن أن يكون قد حدث لهم ، أن يكون قد فعل بهم ، فى الشوارع ، فى وقدة الشمس العارية البذيئة وفوانيس النور واعلانات النيون ؟ . . . .

كانت دفقات الماء الفاتر تنصب على رأسه ومؤخرة عنقه ، يجمعها بين راحتى يديه من تحت الحنفية ، ويطس بها وجهه ، ويلقى بها على رأسه ، فلا يسمع الا صدمات الشلالات الصغيرة المفاجئة ، وهو يشهق باستمتاع ، وعنف ، ويجفف وجهه كأنما يكحته ، كأنما يريد أن يمحو شيئا لا يرى ولا يمحى ٠

كان الأوتوبيس الضخم ينطلق غاصا بالناس ولكن صامتا ، على حافة النيل ٠ وقد فتح الشباك الى جانب وجهه ، وساقاه مرتفعتان فى وضع حرج ، قدماه على الاستدارة الحديدية الناتئة فوق العجلة الأمامية ،

ناعمة ، مكشوطة بان صدؤها ، والزحمة قد تحولت الآن الى نوع من العجينة الثابتة الرخية ، انحسرت عنها تقلبات النزول والصعود وصراعات الوقوف والتحرك ، وقطع التذاكر - أو التهرب منه - اصطياد المقاعد والتربص بها والبحث عن مواطىء مريحة للاقدام • وفى داخل الكتلة الضخمة المندفعة كأنما رغما عنها ، لا تملك أن ترد حركتها أو تطامن من انطلاقها ، كان يحس موجة ثقيلة ولكن مقبولة ، بل مريحة ، من التماس الوثيق الحميم بين الأجسام التى همدت - فى توتر مراخ - وأمنت لحظة من لجاجه شد وجدب لا ينتهى واحاطت بها جدران ملفوفة ، مصقولة ، توحى بالاطمئنان فى قوتها الذاهبة الى غرضها لا تحيد ، هشة ولكن مفتولة الذبذبات محكمة الرقائق ، بين زجاج النوافذ السميك المترب الشفافية ، والمقاعد الجلدية البلاستيك اللامعة من احتكاك الأجسام العرقانه ، والأعمدة النيكل الرقيقة المدورة • والارضية ، تحت الأقدام ، تهب وتنزو وتنحط فى انسياب متموج يقترن بأرض الشارع ويسيطر عليها بثقة •

وقد امتلأ الأوتوبيس بهدير المحرك والأنفاس الحميمة الهادئة والتلاصق الذى استقر ، لحظة ، الى نوع من الرضى والقبول - ما أندره ! - بين الناس بعضهم البعض •

وهواء النيل يدخل اليه ، فجأة ، من على صدر

المياه الواسع العريض ، فيغمض عينيه ، ينفحه الهواء بنشقة تملأ قلبه براحة آخرى ، كأنها صوفية ، وكأنه لم يكن قد أوى الى ذخر من التعلات ، وذكاء الحيوان الذى يريد أن يتشبث بالحافة ، ولا يقع ٠

في وسط براح المياه الرقراق مركب وحيد صغير أسود ، يبدو من بعيد مشقوقا أعجف ، قشرة ضئيلة نحيلة يصعد بها وجه المياه ويهبط ، في رفق ٠ ينبثق منها شراع أبيض مفرود شاهق الارتفاع ممتلىء بالهواء ، روح قوية عريضة الجناح ، تشق طريقها بتوق ووجد الى السماء الباردة الزرقة ، يحملها جسم هزيل خشبى ضامر تلعب به موجات صغيرة وسط تيه شاسع فى سهل المياه الرمادية ٠

وتحت عينيه شط النيل ينحدر الى التفافات كثيفة محروقة الخضرة من نباتات الحلفاء والبوص ، ورقعة صغيرة ممهدة مزروعة ، على الشط ، بأعواد صغيرة من الذرة المهدلة الشواشي ، وخص صغير مكسور من الخوص والطين الجاف ، لا باب له ، وعلى الشط الآخر اهتزازات نور الصبح ، بلا صوت ، بين حيوانات غامضة أليفة قاتمة الخضرة من الأشجار اللفاء العجوز والبنايات المرتبة المنسقة ، طهرها بعد المسافة والضوء المائى من وحشيتها ، وروضها ، وغسل عنها سوقية الحسابات العارية ، لانت واستكنت، فى نوع من اللدونة الطفلية،

تحت نور الصبح وتراوح نغمات الخضرة وقتامة ماء النيل .

ارتفعت صرخة الفرامل فجأة ثاقبة ، كاشطة ، تنوح . لف الأوتوبيس على الشط لفة واسعة ، سريعة جدا ، ومالت الكتلة الضخمة ، في هدير المحرك الذى يئز فى ذعر وغضب معا ، وأحس العجلات تحته تخرج عن حافة الأسفلت الصلب الآمين وتثب ، في رجة تهد العظم ، فوق بلاط الرصيف ، وتحتك ، متشبثة ، بتراب الشط الهين القوام .

واندفعت من جانبه سيارة نقل ، تكركر فى ثقل ، وفراملها تعول أيضا في صرخة بطيئة ، وأطراف حمولتها من أعواد الحديد الصدىء الناتىء تكاد تخترق زجاج الأوتوبيس ، وكتلة الأوتوبيس تنزل على الجسر الطينى ، منحدرة بمقدمتها العريضة الى أسفل ، وتدخل تحت كتف من جرف بارز ، مجوف ، عريض . الأرض، تحت العجلات التي تدور سريعة تتلمس النجاة والحياة ، لزجة رخوة طينية لكنها تحتمل ثقلها ، حركتها الدائرة الجارية تهبشها فى استماتة ، وقد انحشر سقف الأوتوبيس تحت الكتف الطينية الثابتة تخمشه في خشونة ولا تنشدخ مع ذلك ، وتمر غيامة خاطفة من العتمة ، في الفجوة القريبة من النيل ، ولم يعد في العربة الا لحظة صمت كاملة ، كأنها الأبد ، من غير أنفاس ، انجابت فجأة كما سقطت فجأة ، والسائق يدور

والناس تهتف وتصرخ وتميل وتترنح ، أذهلتهم المفاجأة وهبت صيحاتهم ودعواتهم الملهوفة ، ملء عيونهم تقلبات متعاقبة من الأرض الماء والأسفلت والطين المتماسك ، والسائق يغير السرعة فى حمى البحث عن الخلاص ، واليقظة الحادة ، ويضغط على البنزين ، ويرتفع الأوتوبيس بجرمه الثقيل وقوته الدافعة الى أعلى ويصعد ، وتتشبث العجلات الأمامية بثبات جديد فى منحدر الأرض المرتفعة وتزحف مندفعة الى فوق ، على أرض تهدد كل لحظة بالانهيار ولا تنهار ، ويتشمم خطم الأوتوبيس الارض المرتفعة ولكنه لا يمسها ، ينشق منها نفس حياته ورائحة التراب ، ويشهق ، شهقة واحدة متقلبة الزئير ، يزوم فى هريره الممتلىء الصدر ، ويزحف الى أعلى ، باستماتة ، والعجلات ترتفع على أرض لا أفق لها ، الى حرف السماء تتوغل صاعدة على جرف لا يسقط ولكنه لا يصل الى الأمان ، فى نفس اللحظة التى تدمدم فيها رؤوس الناس تحت ضغط الطين الجاف ، ويتقوض جرف هش من كتل التراب الجامدة على الشط وتسقط الكتل الصغيرة من غير صوت ويرتفع منها رشاش بطىء ، موسيقى الحركة ، لا شأن له بشىء ، وهناك ، فوق ، من بعيد ، على الأفق الشاهق الارتفاع الذى لا تصل اليه العجلات فى دورانها المتماسك الحرج المصمم الملهوف ، تحت صفحة السماء ، بازاء خلفية العمارات الملونة بالبنى المنطفىء والأزرق الكبريتى الكابى ، هناك ، وحدها ، متميزة قاطعة الحواف ، عربة

تين شوكى ، على عجلاتها الخشبية الدائرية الرقيقة الفروع ، أخشاب العجلات المفرغة تبدو من خلالها زرقة السماء ، رقيقة مشعة من المركز ، منفرجة من بؤرتها المكورة الصلبة ، فى موسيقى هندسية ثابتة ، وأكوام الحبوب الشوكية ، عالية ، غضة بعصارتها ، نباتات عصية وكثيفة الغنى ، لا تبالى ، تحديها لا رد عليه ، وبجانبها صفيحة الماء تومض بشعاع لا تطيق عيناه أن تستقرا عليه •

عندما دخل الى ميدان التحرير آتيا من اتجاه كوبرى قصر النيل ، فى نور الصبح العارى الثقيل ، وما زالت قدماه غير متوازنتين قليلا ، لا تكادان تستقران على الأرض ، ورفع رأسه ليعبر الطريق ، سمع صوت النافورة لأول مرة ، واضحا فى الشمس ، والمياه تسقط على الرخام المفكك المتآكل ، وحفيف التراب فى أوراق الشجر الجافة •

كان الميدان ، تحيط به شوارعه المسفلتة وتخترقه ممرات متلوية وفسحات من الخضرة الناصلة ، خاويا • ميدان فى وسط بلد ريفية ، وبنايات المجمع ، والمتحف، والعمارات القديمة، من ناحية ، زازحة كلها، وقصيرة ، ومفلطحة ، بهائم ضخمة كسول حول الجرن ، مدت كتل أقدامها العريضة ودفنت رؤوسها فى كومة عظامها الساقطة ، الهامدة • ومن الناحية الأخرى اقتحام الهيلتون برشاقة لا حياة فيها ، سوقية جدران مصقولة حادة ملطخة بمساحات مقطوعة من الألوان الجارحة •

مياه النافورة تعلو ، فى غير همة ، وتقــع ، متنــاثرة القطرات على الحــوض المكســور . والمماشى الترابيــة المتعرجة ، خالية ، عليها أوراق ممزقة يتطاير بها هواء مسف مترب . خلية الأوتوبيسات الحمراء تموج بنحل ثقيل قذر ، تطن ببطء وتزاحم ، لا تدور حول مركز اشعاع ، تنسرب فى الشوارع من غير وجهة . اعلانات النيون حمراء زرقاء تومض وتنطفىء ، تسطع باهتــة فى النور الجامد المحايد ، لماذا أضاؤوها فى نور الصبح؟ وظلال الناس القاتمة فى الشمس ، تسير فى غير سرعة وفى غير بطء ، محنية ، يحسبها قامات سوداء رفيعه رثة هزيلة مجوفة ، فى وسط اشعاع رازح شامل ، تختط طريقهــا الى ركن الحيطان وأمن الابات والســراديب والمكاتب والسراير الرثة .

ومرت من أمامه ، كأنما تأتي من عالم آخر ، دراجة مسرعة رشيقة يدور بها صــبى جنــاينى ، ويستدير عسكرى المرور ليفتح لها طريقا خاويا لامعا اسود ليس فيه غيرها ، وخلف الولد ، على السلة الحديدية المعلقة بالدراجة ، أكوام شــاهقة من الأزهار الأثيثة المكتنزة الجسد ، طرية غضة ، يتدفق غنى ألوانها فى النور ، فى لدونة لحم حى وثير ، ورقته ، مقطوعة ، ملفوفة الى بعضها البعض بخيوط خضراء من أعواد نبات ، أشرطة حمالات تحز فى بضاضة البياض وفى نداوة الألــوان الوردية وتحدى الحمرة اليانعة وكبافة الزرقة المليئــة بالعصــير ، خطفت أمامه وابتعدت ، فى كــل مجـدها

الحسى . كأنما غرق فى لحظة فى طيات جسد امرأة باذخة ، فى لحظة الحرارة الأخيرة الناعمة .

كان الجرم الصغير الوديع ، بسنامه الصغير على ظهره ، يأتى من يمينه ، من ناحية باب اللوق ، بين سيارات قليلة متباعدة ، تنحرف وتختفى فى الشوارع الجانبية ، تتجنب الميدان ، وتنسل من تحت اللوحات الخشبية الضخمة ملصقا عليها اعلانات الويسكى والسينما الورقية الممزقة الأطراف . وتراءت له قبلة شرهة بذيئة فاغرة فاها ، لا تتحقق أبدا ، بين وجه رجل بنفسجى كامد مخطط ، وامرأة راقدة حمراء عارية الساقين تأكل جسدها الحروف المتضخمة المتعرجة .

اقترب من الشارع الخلفى عند مبنى وزارة الخارجية القديم ، طويلا ، بارز الأسنان فى وجه أسمر نخيف العظام ، ووقف بجانبه ، ينتظر اشارة المرور . كان الطريق مفتوحا . هادئا فى قميصه الأبيض المشمور الأكمام ، ذراعاه مسترخيتان ، تنتهيان بأصابع مستدقة سوداء الأظافر ، فى ساقيه رشاقة توحى بقوة خفية ، بمقدرة خارقة على القبض والتملك ، فى قدميه حذاء تنس من قماش حال بياضه الى سمرة .

أحس رغبة أن يقول شيئا فالتفت اليه ، وقال بجد :

ـ لماذا لم يضربوه ؟

ـ لابد أن يأكل ٠

ـ لابد أن نأكل كلنا ، ونعيش ٠

ـ الجو حر ٠

ـ أول الصيف ٠ الحر جاء مبكرا ٠

ـ سنعود بالليل لبيوتنا ٠

ـ وأين بيته ؟

ـ لابد أن يسير المركب ٠ سواء كان النيل هادئا أم غير هادىء ٠

ـ سيأتى الليل أبطأ من السفينة ٠ هذا كل شىء ٠

التفت فجأة ، فرآه ٠ لا يتحـرك ، قريبـا منه فى وسط الطريق ، وحده ٠

كان ينظر الى الجـرم الضـخم قادما من اليمين ، بعيون عاقلة وشرسة ، يتربص ، دون أن تختلج فيـه عضلة ٠

لا يصدر عنه صوت ، لسـانه العريض الأحمـر المحبب ، مدلى من فمـه ، مبرد حى مشـحون بطاقته ، ساقط من تحت الأنف الضخم المفلطح ، أقدامه ثابتـة لينة على الأسفلت الأسـود ، جبهتـه المرقطة مدورة ، هابطة ، وجفناه الثقيلان ينزلان على عينيه ، كأنه نصف مغمض ، مرهق من السفر ، هادىء يعرف سـيطرته ،

ينتظر بثقة لحظته ، وكأنما تخلخل الهواء من حواليه ، وفرغ ، وملأته شحنة جديدة غير مرئية من القوة والتهديد .

وأحس صدره يضيق . ألم غير مستبين لكن موجع وضاغط يقبض على عظام ضلوعه ، بخفة لكن من غير أن يفلته ، ويتهدد ، وتتركز له نقط حادة في مكان قلبه .

مازال يخب في فسحة الميدان الواسع ، قادما اليه ، شامخا في كيانه البطىء الناسي بنوع من الرشاقة المهتزة النقيلة ، ينظر من عل الى الامام ، في غير مبالاة .

سمع صوت الهرير العميق الأجوف الخشن ، يتردد ويتضخم ، وان كان مازال في طبقة تحتية مدفونة ، ويملأ سكون الميدان الذى تتناوش صمته أصداء خافتة من نفير سيارات وصلصلة ترام بعيدة ، وحفيف النافورة .

سوف يثب الآن ، وينقض عليه بمخالبه المشرعة الثاقبة الممزعة ، وسوف تسقط كتلته المدمرة بهجوم مندفع لا يوقفه شىء ، بحيوية خاطفة لا راد عليها ، وينطلق الزئير في نشوة الهجوم ، وتنشب الأنياب المدببة في العنق الطويل . سوف يختلط الخوار المفزع الشاكى الأجش ، بزمجرة النهش والتمزيق المتقطرة دما . ويسقط الجرم الشاهق على الأسفلت ، تحت دفعة

الوثبة المنقضة عليه • ولكن تتشبث به ، لا تفلته ، السيقان القوية القصيرة القابضة بكلاباتها العظمية النافذة الى مخابىء الحياة بحساسيتها النابضة الخافية التى لا منعة فيها •

سوف تصطدم السيقان والأذرع والضلوع ، وتصطرع الأجسام ، وترتطم أعمدة العظام ، بلا عقل، فى شراهة الخطف والهبش ، فى التطام التخبط والتصادم ، فى تصميم الكسر والهضم ، بين تهشم حجارة الحياة المنقوضة ، وضجيج الأحشاء المكنونة مكشوفة فجأة للنور القاتل ، بين صرخة النصر وحشرجة التشبث بالهواء الواهب للحياة •

كان ينهج ، وهو يصطدم بالناس ، ويهتفون به ، يمرق بين السيارات وعربات الكارو المتزاحمة ، وتلاحقه الشتائم والتوجعات الساخرة ؛ ويهبط سلالم مترية بين جدران ضيقة مترية ، وتصفر خلفه عساكر المرور ، وتنحرف الدراجات عنه وهى تقرع أجراسها دون توقف، ويتراجع الناس أمامه وهم يشورون بأيديهم ويزعقون به •

كان قد رآه • التقى به، وحده • وفى قلب الميدان•

وعرف الآن ماذا يمكن أن يحدث • ما يحدث بالفعل • وهو أيضا لن يقول لأحد أبدا •

لكنه عرف أيضا ماذا عليه أن يفعل ، منذ الآن •

عرف بقلب واجف قلق ما يجب أن يفعل، هل يستطيعه؟ هل يستطيع أن يقـوم بالمهمـة التي قرأها في العينين العاقلتين الشرستين ؟

كيف وصل الى الغورية ؟ لم يكن في ذهنه الا صور متعاقبة خاطفة من الترامواايات والناس ، من الزحمـة والعربات ، في مطاردة افلت من قبضاتهـا المفاجئـة المتهددة ، من صرخاتها وعجلاتها القاسـية . أنفاسـه تقتلع من صدره اقتلاعا . لن تعود ساقاه ، بعد قليل ، تقـويان على احتماله والاندفاع به ، جـريا . الارض تشدهما اليهما ، وصدره شق ضيق جارح . لكن ذهنه هادىء ، في بؤرة ثابتة من حرارة سـاطعة ، يعد عدته لصراع لا يعرف أين يحدث ، ولا كيف يخرج منه ، ولكنه يعرف انه سيذهب اليه طائعا . أو برغمه ، ويخـور قلبه عندما تطوف بذهنه نتائجه ، لا يسلم أبدا بها ، ولكنه يعرف انهـا محتـومة وضرورية ، أيا كانت . ويعرف أنه ، طائعا أو برغمه ، سيخوض غمرته .

العينان القاسيتان تنظران اليه ، من عمق شفاف أجنبى عنه ، مازالتا معاديتين . ولا رد عنده .

كان مسندا ظهره الى الـكرسى غـير المريح ، يرفع رأسه الى الحائط القديم ، وضلف الشبابيك السوداء . كان الحمام يدخل ويخرج ، برشاقة بطيئة هادئة ، من أقفاص الجريد التى تحيط بها أوراق اللبلاب ، فوق جدار القهوة البلدى . وقد صفت الـكراسى فى مفرق

الطرق على الأرض المفروشة بالـرمل المبلـول • وقدة الظهر قد خففتها الظلال المتراوحة على تعريشة العنب الممدودة ، سقفا أخضر مثقوبا فى آرابيسك غير منتظم، فوق الشارع، على أعمدة خشبية رفيعة حائلة الاغبرار • وجاء الصبى بابريق الشاى المعـدنى الصـغير الأزرق المدور ، لم يعد يرى مثل هذا الابريق كثيرا • يذكره من طفولته • كان ابريقه هو ، لا أحد آخر يشرب منـه الشاى • شاى طازه جديد ، وكوب سخن ثلثه ماء سخن، وملعقة صفيح غارقة فيه ، وسكر فى منفضة سـجاير زجاجية مضلعة • هذه قهوة نظيفة ، معتنى بها ، حسنة الاضاءة •

ــ أهلا وسهلا • شرفت المطرح يا فندى •

ــ أهلا بك • الله يشرف مقدارك •

ــ نورت الغورية •

ــ منورة بيكم وبالجدعان •

ــ رايح القلعة ان شاء الله ؟ خان الخليلى ؟

ــ أبدا والله • مشاغل •

ــ ربنا يعين •

ــ سمعت الأخبار ؟ ماذا حدث فى الميدان ؟

ــ هل حدث شىء فى الميدان ؟

ــ أنا أسألك ماذا حدث فى الميدان ؟

ـ ماذا تريد أن يحدث فى الميدان ؟

ـ الساعة عشرة الصبح ؟

ـ ماذا يمكن أن نفعل ؟ لابد أن يمر الواحـد من الميدان ، فى الصبح أو المساء •

كان الرجل يستمع الى الحديث • وقف على الناحية القريبة ، بينما هو يقلب الماء الساخن بسرعة ، يديره فى الكوب ليطهره ـ أليس هذا هو المفروض أن يفعل ؟

وعندما ألقى بالماء بعيدا عنه الى الأرض المفروشة بالرمل ، كان الرجل ينظر اليه ، دون ابتسام ، عارفا • وجهه الداكن مغلق ، عيناه مدفونتان ، ليس فيهما مكان للرحمـة • عظامه متينة ، فيما يلوح ، تحت القميص الرمادى المفتوح خارج البنطلون الأسود المكوى • فمـه المكتنز ، بشفتيه السوداوين تقريبا ، الشـهوانيتين ، كأنه على وشك الابتسام • لم يبتسم •

ـ هل حدث شىء ؟

كأنما حياته نفسها تتوقف على رد من الرجل •

ـ اتفضل الشاى •

ـ آه • الشاى • الشاى هنا عظيم •

ـ أصيب أحد ؟

ـ لمـاذا ؟

ــ فى الميدان ٠

ــ الانسان دائما مصاب ٠

ــ لا ٠ لا ٠ أبدا ٠

سقط نور الشمس ، مخففا ، من بين أغصان التعريشة ، على الوجه الداكن ٠ هل هى ابتسامة ؟ أم لعب الضوء بعينيه ؟ رشف من الشاى ، مازال ساخنا ، وضع الكوب ، على رخامة المائدة المدورة ، ببطء ٠

ولم يرفع بصره من الأرض ٠

على الرمل المبلول المسوى ، واضحة ، قاطعة الوضوح ، آثار أقدام أربعة ، مفلطحة ، غاصت فى لدونة الرمل من ثقل كتلة الجسم العريض ، تنتهى كل قدم بغرز عميقة فى الأرض ، مدببة الغور ٠ المخالب المقوسة ، على بعد خطوتين من عينيه ٠

وظلال الأوراق ترتعش بين استدارات الضوء الصغيرة المهتزة ٠ جاءت أصوات خبط ودق معدنى بعيد ــ دكان سباك ، أو ميكانيكى سيارات ، سروجى على الأرجح ، لابد انه سروجي سيارات ، السروجية لا تحتاج مهنتهم الى خبط ودق ، مبيض نحاس ، نعم ، أو صانع ، ربما ، أو بياع البسبوسة تحت المئذنة العتيقة ، أمام منصة حلواه اللينة الندية بالعسل السريعة العطب جنب أحجار الجامع السوداء الألفية ٠ وارتفع زقاء ديك ، طويل فى همود الظهر المبهم، ينادى الفجر٠

وتكرر صياح الديك فى السكون ، مرة آخرى، ومرة ٠ لم يرد عليه نداء آخر ٠ وحشنة هذا النداء لا تطاق ٠ كل شىء يغمره سلام ٠ وصمت ٠ القهوجى على النصبة ، فى الداخل المعتم الرطيب ، يغسل الأكــواب ويضـــع الصوانى الصفراء التى تقطر ماء بعضها فوق البعض لها قرقعة نحاسية مكتومة الصدى ، مبتورة ٠

ـ حصل لنا الشرف ٠

ـ الله يشرف مقدارك ٠

ـ من الناحية ؟

ـ أبدا والله ٠ مررت من هنا مجرد مرور ٠

ـ قلت تأخذ شاى ؟

ـ شاى عظيم ٠

ـ أهلا وسهلا ٠

ـ تقول حدث شىء ؟

ـ أى شىء ؟

ـ أبدا ٠ مجرد سؤال ٠

ـ حصل خير ٠

كان يصعد الى الحارة من ســلالم ضــيقة حجرية متهدمة ، ملبدة بطبقة قديمة من التراب ٠ وجر قدميه

في بركة صغيرة موحلة من ماء غسيل تتشربه الأرض ٠
ومر من تحت شرفة خشبية مائلة مهجورة ، تكاد تسقط
من بين أحجار مكومة في دور علوى مهدود ٠ وعبر أمام
بقال مظلم مدفون تنزل اليه سلمة الى الداخل ، وأمامه
صندوق الكوكولا أحمر مقشر الطلاء ٠

وصمتت النساء لحظة ، وهو يمر ، جالسات على
العتبات المتربة يرضعن ويثرثرن بصوت عال مرتاح
ممدود ، في قمصان نوم مقورة الفتحة واسعة باهتة ٠
ذراعان ناعمتان تلقيان بماء وراءه ، من حلة كبيرة ٠

وجه امرأة ، كأنها طفلة ، لكنه نسائي ، معابث ،
غض ، ساخر ، مشعث الشعر تحت المدورة التي تنتهي
بكريات صغيرة مهتزة ملونة ٠

ولد يقعي في وسط الحارة ، في طريق الذاهبين
الآيبين ، وقد رفع جلابيته النظيفة حتى وسطه ،
واستغرقه الجهد المستحوذ الذي تركز فيه كل جسمه ،
باستمتاع ، ورفع اليه عينين مستطلعتين ، غائبتين ،
وجهه محتقن بالدم والجهد المريح ٠ ودار حول الخرابة
الغائرة الأرض ، من وراء كوم تراب عال هبت عليه
منه رائحة العطن والبراز والصفيح الصدىء والأرض
التي ينتقع فيها الماء على مهل ٠ هذه بيوت قديمة ٠
وراءه علب الطوب الملونة بألوانها الفاقعة ، قد أخذت
منذ الآن ترث وتتشقق شقوقا رفيعة متعرجة سوداء ٠

أين يجده ؟ كيف يمكن أن يجده ؟ قال له انه في

كل مكان ، فى الميدان ، فى حوارى الحلمية ، فى شوارع شبرا ، تحت المتحف الزراعى ، قال له فى ساحات مصر الجديدة ، وفى الصاغة ، فى أغوار الغورية ، نعم جنب الجيزة ، فى جنينة الحيوانات ، أيضا ، مقفلا عليه داخل القفص وخارجه ، أيضا ، قال له عند الساعة فى سليمان باشا ، وعند السفارات فى العجوزة ، والزمالك وفى الأزهر ، قرب قرافة الامام ، وعلى العلو فى العباسية ، قال له فى كل مكان . الناس لا يعرفون ، خطوه بخطوهم ، رجله على رجلهم ، أنفاسه فى صدورهم الشرسة ونبضه هو نبض قلوبهم المحطومة . لا تفهم ؟ قال له انه يدخل الشارع ـ كل شارع . بأقدام واثقة تعرف انها تملك الشارع ، كل شارع . قال له بأعين حنون قايضة ، تحتضن الناس ، سياقاه الأماميتان عليهما شعر ناعم وملبد تفوح منه رائحة الحيوان الوحشى الحريفة الزاعقة ، شممتها ، قال له ، أنفاسه زخمة بخراء ، ولكنك ، تعرف ، تحبها ، وتنشقها وتجد فيها طعما تريده ، قال له تجد الاشلاء فيما بعد ، مرمية على التراب ، وعلى الأسفلت ، يرفعها عساكر المرور ويضعونها على الرصيف ، كلقمة عيش ، ويغطونها بورقتين مفرودتين من « الأهرام » ، أو « الأخبار » ، قال له الناس تلقى بصفيحة ماء على الدم الذى يسود لونه سريعا ، أو يرشونه بقليل من الرمل أو التراب ، وعجلات السيارات على أى حال سرعان ما تمحو كل أثر ، قال له ان قطعنا صغيرة ملوثة من ملابس

الأطفال ، ممزقة ، يطير بها الهواء أحيانا ، ويلفها الناس ويرمونها على جنب وتضيع ، بين قشر الترمس واللب وورق كراسات التلاميذ الممزق ، قال له ينسل من تحت البوابات العتيقة ، بين دكاكين الأحــذية ، وشــوالات العطارين التى تنفث رائحة التوابل والبهارات ، يحتك بأكوام الذرة المغلفة بخضرتها ، وتهتز عربات الترمس والذرة المشوى من صدمة جسمه بها ، على شط النيل ، بين المتنزهين والجالسين على العشب الناصل ، قال له النــاس لا تسرع ولا تجــرى ولا شىء ، قال له صرير صدره ، وزحيره ، يتردد أحيــانا ، كأنه من الداخــل ، حيث لا يوجد فى الشــارع الا ضــجيج المرور ، كرير أجوف يتذبذب داخل اسطوانة القفص الصدرى الوثيق، ويلتفتون فلا يرون شــيئا ، هــرير عميق به حشرجة طبيعية منتظمة ، ثابتة الايقاع ، قال له ضربة واحــدة تجعل الرأس المبتور ، فاغرا عينيه ، صامتا ، يســقط بصدمة مكتومة على أرض الشارع ، وتتحاشاه السيارات قليلا وتنفث الحمير التى تجر عربات الكارو ، فى رعب مفاجأ ، ثم تشتد الزحمة من جديد ، وتغلق الثغرة فى المرور ، ولا يدرى أحد، ولا يهتم أحد حقا ما اذا كانت القرقعة الخفيفة الوزن ، التافهة فى عراء الشــوارع وصخبها ، جاءت من العظام المتهشــمة ، أو من قرقعــة غازات العادم فى السيارات ، أو من خبط الأبواب التى تصطفق ، قال له أحيانا يجد الأولاد عــلى الرصيف ، أسنانا منزوعة عليها تراب قليل ، فينظفونها ويلعبون

بها شمس يا شموسة ، خبدى سن الحمار وهاتى سن العروسة ، يا شمس يا شموسة ، خدى سن العريس وهاتى سن الجاموسة ، قال له زمجرته أحيانا ترتفع فى وسط النهار ، توقف كل شيء ، فى دائرة ضيقة ، لحظة من زمن ، وتخرس كل شيء ، ويتكرر الزئير المحتشد بالخوف والتهديد معا ، ولا ينظر الناس الى بعضهم البعض ، ينصتون لحظة ، برغمهم كأنهم لا يصدقون ، الى الصوت المفزع المروع معا ، ترتطم أصداؤه ، فى لحظة الصمت والانكار ، بين الجدران والنوافذ ولوحات الاعلانات ، فى قلب الميادين ، أو فى السكك المسدودة ، وتسمع أحيانا أصوات الضلف والأبواب الحديدية أمام الدكاكين والواجهات تنزل بسرعة ، وأبواب الشرفات تصطفق ، ولكنه بعد ذلك يعود فيسير ، بخطواته التى لا صوت لها ، مركب بطيء رشيق ضخم الجرم على النيل ، تتموج أشرعة جسمه ، بقوة ومعرفة ، وسط الناس الذين يعبرون اشارة المرور ، لا ينظرون اليه ، ولا يرونه أيضا ، يثب ، فى خفة ، بين أنوار الأتوبيسات الحمراء المتربة ، تنحرف له قليلا ، وتبطىء ، لتتيح له أن يعابثها ، مرحا ، شبعان ، قال له خشخشة مخالبه تسمع أحيانا ، فى الليل ، على أبواب الشقق النائمة ، ويستيقظ رب البيت ، فجأة على الصوت ، ويظن انه يحلم ، ويرفع رأسه قليلا من المخدة ، ويحبس أنفاسه ، ينصت ويترقب ، قال له انه يعرف ، انه يعرف . قال له صحيح .

في كل خلجة منه حس مهدد قريب بهذا العناق الأخير ، عندما تطبق عليه السيقان الشعراء الملتفة ، في حنانها المصمم الخام ، قاسية تؤدي واجبا لذلك قسوتها ضرورية ، تمسكه بمخدات الاقدام الناعمة المفلطحة ، مخالبها الحادة مغمدة في جرابها ، وتغمره الرائحة الحيوانية الزخمة التي لا فرار منها ، الرائحة الخصيبة الكثيفة كثافة جسم يتحلل وتنسكب الى الخارج عصاراته الطازجة في أول لحظات الفساد الاخير ، ويلصق جسمه ، في قبضة كاملة الاحاطة ، بعضلات الصدر العريض ، تزحر فيه أنفاس متضخمة الايقاع ، هادئة ، ويرتفع الكرير الاجش يملأ العالم ، وتسطع الرائحة الملبدة الثقيلة تسد كل شيء ، للمرة الأخيرة ، في حضن يضغط تلك الضغطة الرحيمة المهشمة النهائية التي يظلم فيها كل شيء .

ومواكب الناس تمر به ، في باب الحديد ، كل الى وجهته ، في وحدتهم واندماجهم معا ، ماذا يفعلون ؟ هذه الوجوه التي لكم ، منحوتة ، مضلعة ، منبعجة ومضغوطة ، عرتها الوحشة والقسوة وجففتها ، شققها العرق وخط فيها الألم والشبق أخاديد لا تمحي ، هبت عليها وفتتتها أعاصير الشهوات والآمال الآمرة ، وانهاكات التحقق والاحباط معا ، كلها لا تفي بشيء وتترك الجوع متقدا لا ينطفيء ، عطشانة دائما ، ويابسة ، ذابلة ، متطاولة ، مسحوقة غضة ، متهدلة ، مشدودة في ايناع الصبا ، فتوة النضج ، اشراقة خاطفة

تمتلىء بعدها باللحم المتلمظ وتغص بالتجشؤ العفن ، هذه العيون المطاردة ، والمختبئة ، والمتربصة والمقتحمة ، والجامدة • أرواح محبوسة فى حفر قبورها ، تتـواثب وتخمش وتنبح وتزأر وتكركر بضحك الضباع ، من غير صوت • أرواح تنادى ، بصـوت مكتـوم • تنـويعات شائهة على أصل بسيط وجليل قائم عند أساس صـخر الجسم الذى يتحات ويسقط عنه فتات الحجر ، لتترك مسوخ النقوش المعراة ، طبقة بعد طبقة • ماذا يفعلون؟ الى أين يذهبون ؟

الوحش الذى يسكن قاع قلبى ترتفع به مياه حب غير مفهوم وغير مطلوب ، ثم تتهدم الأمواج • قال له ان المركب لابد أن يسير • أين سفينتى ؟ قال له ان الصيف جاء مبكرا هذا العام واننا بالليل سنعود الى بيوتنا ، وننام • قال له ماذا تريد أن يحدث ، كلنا لابد ان نمر من الميدان •

عندما عبر الشارع أمام سينما مترو ، دخل الممر الضيق ، بين الحيطان المرتفعة المعتمة • أوراق الشارع ونفاياته النظيفة الجافة قد كنست وجمعت فى كومة صغيرة غير منتظمة ، جنب الرصيف ، على البلاط المغبر القديم • ومر بذهنه انه لم ينزل قط ، ولم يصعد قط ، مثل هذه السلالم الحلزونية الحديدية التى تدور وتدور مرتفعة الى ظلمة فوقية غامضة ، الى سطوح حادة لا منفذ فيها ، فى المغرب البرونزى الصدىء القاتم الخضرة •

كانت قدماه ، من التعب والغياب، تخبطان به طريقا غير مستقيم . واصطدمت كتفه بصناديق الخشب المبقورة الجوانب الموضوعة في أكوام قلقة حرجة تهدد بالانهيار . وكانت الدكك الخشبية على الأبواب ، فارغة لا يجلس عليها أحد ، لامعة مصقولة مجوفة في وسطها قليلا من طول جلسة أجيال متعاقبة من البوابين المنسيين .

كانت تجلس على الأرض، ترضع ابنها ، صعيدية ، سوداء ، مجعدة وجافة ، تنحنى عليه بلا اهتمام ، فى حركة حنان لا يطاق ، لا يبرر شيئا ولا يبرره شيء ، ثدى صغير داكن متهدل ، مشقق بالغضون الذابلة ، وطرى مع ذلك يحمل عصارته ، حقيبة لحمية ملآنة مقددة الجلد ترتطم بعظم الصدر ويمصها الفم الشره دون هوادة ، أنثى حيوانية هزيلة ولكن عينيها تلمعان لمعة غير حيوانية ، من طول تعرية لشمس صراع لا راحة فيه ، من جفاف انتزاع العطاء من بئر ضحلة ، ويأس الاقتراب والابتعاد ، بلا نهاية ، من الاشباع الذى يعد وينكث وعده ، وينسى ويعود ، فى تكرار فقد كل نضارة وكل جدة . يرتفع بجانبها قفص جريد انكشفت أضلاع الخوص الرفيعة فيه ، متخاذلة ومصلوبة فى رقتها ، لا تتهاوى ، مفروشة عليه بضع صحف يومية ، وكتاب « الشعب » بعناوين كوفية وصورة مثلثة سامقة ، اصفرت جلدته وتلوت أطرافها من الهواء السخن . وجهها الاسود المتهضم مضىء بصبر آخر ،

والولد على حجرها ، مضغة تبدو لا أهمية لها ، يتشبث، سمكة على حافة شط جاف به ماء قليل ، يدفع بساقيه وقدميه ٠

أقول لك سيدتي ، حبي ، أمي ٠ سخف هش مثير للضحك ٠ أقول لك انني أعتذر ، انني آسف ، وحزين ٠ عبث ٠ لست أقول لك شيئا ، ولا أستطيع ٠ ما أرخص هذه الدموع التي لا تريد ــ مع ذلك ــ أن تنسكب ٠ لست أعرفك ، يا أمي ، لا شأن لك بي ، لا شيء يصل بيننا ، كل دعوى أخرى باطلة ٠ قال له الوحش سفينة تبحر بنا في مياه مجهولة ٠ والعالم وحش ، والألم ٠ ولا هذا أيضا ٠ لا ٠

كان يمشي ، في آخر نور المساء ، في طريقه الخاوي الذي تحيط به الأشجار ، لا ينتهي ، موحشا ، ليس فيه شيء ، على الرصيف وتحته برك جافة من الحبوب الصفراء الدقيقة التي تسقط من أشجار الكازورينا في الصيف ، يهب بها هواء أول الليل فتطير وتحط على أسفلت الطريق ٠ مصابيح الشارع مضيئة زرقاء في ضوء السماء الأخير، كرات زجاجية تشع بنور لا جدوى فيه ، وهو يسير ، نائما مغمض العينين ، في ارهاق كامل وصل به الى حدود الحلم ، في غيبة لا يوجد فيها الا جسمه ، وحش مهدود ، يمضي دون ارادة ، دون مخالب ، دون عقبة ، دون وصول ، بلا انتهاء ٠ يحس السيارات تمرق من على جانبيه ، في حلمه ، صامتة ،

أصواتها خافتة ومتمكنة في قوتها ، يحس الناس على الرصيف غرباء ، وإخوة يأمن لهم ظلالا قاتمة في نور وعيه الداخلى الخافت، عاكفين على طريقهم، دون توقف، ودون اسراع .

نداء يهتف به :

ـ ادوار .. ادوار ..

الصوت فى هدوء الشارع يأتيه فى حلم فسيح معتم، الصوت نافورة تنبثق بين جدران كثيفة، يرتطم، ماؤها بالحجر الصلب القديم ، ويسقط .

أهو نداء باسمه فى الليل ؟ لا ، ليس هو . اسمه غريب عنه ، ما صلته به ؟ والصوت غريب .

ودون أن يفتح عينيه ، كان يبدو له أن البيت بعيد

الاسكندرية

١١ سبتمبر ١٩٦٩

فهـــرس

مقدمة	٥
تحت الجامع	٣٧
الأميرة والحصـــان	٥٩
آخر السـكة	٨٧
جرح مفتوح	١١٧
البرج القديم	١٣٧
فى الشوارع	١٧٥

صدر من هذه السلسلة :

● الرجل المناسب	(قصص)	فتحي غانم	١
● دموع رجل تافه	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢
● الجميع يربحون الجائزة	(قصص)	أبو المعاطى أبو النجا	٣
● بالأمس حلمت بك	(قصص)	بهاء طاهر	٤
● رباعيات	(قصص)	شكرى عياد	٥
● من قتل الطفل	(مسرحيتان)	عبد الغفار مكاوى	٦
● منتصف ليل الغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٧
● رشق السكين	(اقاصيص)	محمد المخزنجى	٨
● وعلى الأرض السلام	(قصص)	فاروق خورشيد	٩
● الأشواق والأسى	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	١٠
● والبحر ليس بملآن	(رواية)	جميل عطية ابراهيم	١١
● إن تنحدر الشمس	(قصص)	سحر توفيق	١٢
● لا تسقنى وحدى	(رواية)	سعد مكاوى	١٣
● كهف الأخيار	(قصص)	شكرى عياد	١٤
● محطة السكة الحديد	(قصص)	ادوار الخراط	١٥
● حصار القلعة	(م شعرية)	محمد ابراهيم أبو سنة	١٦
● سارق الكحل	(قصص)	يحيى حقى	١٧
● اربعة فصول شتاء	(قصص)	محفوظ عبد الرحمن	١٨
● انا الملك جئت	(قصص)	بهاء طاهر	١٩
● تاريخ حياة صنم	(قصص)	عبد الرحمن فهمى	٢٠
● الوداع : تاج من العشب	(قصص)	عبده جبير	٢١
● النجوم العالية	(اقاصيص)	محمود الوردانى	٢٢
● قلوب خالية	(رواية)	عبد الرحمن الشرقاوى	٢٣
● الشجرة والعصافير	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٢٤
● عطشان يا صبايا	(قصص)	سليمان فياض	٢٥
● طرف من خبر الآخرة	(رواية)	عبد الحكيم قاسم	٢٦
● طعم القرنفل	(قصص)	جار النبى الحلو	٢٧
● السحر الأسود	رواية)	شفيق مقار	٢٨

● تسلق الجدار الأملس	(روايـة)	حسنى عبد الفضيل	٢٩
● احتضار قط عجوز	(قصـص)	محمد المنسي قنديل	٣٠
● رحلة الليـل	(قصـص)	عبد الله خيرت	٣١
● حبات النفتالين	(روايـة)	عاليـة ممـدوح	٣٢
● ارض لا تنبت الزهور	(مسرحية)	محمـو ديـاب	٣٣
● الخـسوف	(قصـص)	عبد الفتاح الجمل	٣٤
● ما اجملنـا	(مسرحيتان)	محفوظ عبد الرحمن	٣٥
● لم يعد الضحك ممكنا	(قصـص)	يوسـف القعيـد	٣٦
● جبال السـام	(قصـص)	فاروق خورشـيد	٣٧
● الحنان الصيفي	(قصـص)	احمـد الشـيخ	٣٨
● يوسف والرداء	(قصـص)	ابراهيم اصلان	٣٩
● مسـالة لبني	(مسرحية)	يحيى عبد الله	٤٠
● عكس الريح	(قصـص)	يوسف ابو ريـة	٤١
● هـــل	(قصـص)	محمـد جبريـل	٤٢
● عفاريت الجبانة	(مسرحية)	نعمان عاشـور	٤٣
● الطـائر والنهر	(قصـص)	عائـد خصباك	٤٤
● زهـر الليمون	(رواية)	عـلاء الديب	٤٥
● الطواحـين	(قصـص)	امـين ريـان	٤٦
● رائحـة البحر	(روايـة)	سـامى فريـد	٤٧
● حضرة صاحب الدولة	(مسرحية)	عاطف الغمرى	٤٨
● اسباب للكي بالنار	(قصـص)	خيرى شلبى	٤٩
● السين والطلسم	(قصص شعرى)	بدر الديب	٥٠
● ايام الانسان السبعة	(روايـة)	عبد الحكيم قاسم	٥١
● الملاك الأبيض	(قصـص)	محمد زفزاف	٥٢
● هـذا ما كان	(قصـص)	محمد البساطى	٥٣
● الغرف الأخرى	(روايـة)	جبرا ابراهيم جبرا	٥٤
● اغنية حب حزينة	(قصـص)	طلعت فهمى	٥٥
● انكسار الحروف	(قصـص)	ربيع الصبروت	٥٦
● اخبار الدراويش	(روايـة)	عبد الوهاب الأسوانى	٥٧
● النيـل والغضب	(قصـص)	فتحى عبد الفتـاح	٥٨
● الشيء	(روايـة)	نهـاد شريف	٥٩

العنوان	النوع	المؤلف	الرقم
● الغيوم ومنابت الشجر	(رواية)	عبد العزيز مشرى	٦٠
● الصخرة والطوف	(مسرحيات)	فؤاد التكرلى	٦١
● نورسات أبيضان	(قصص)	نعيم عطية	٦٢
● ستر العورة	(قصص)	سعيد الكفراوى	٦٣
● الوجه الآخر للقمر	(قصص)	محمد سليمان	٦٤
● سفر	(قصص)	محمد المخزنجى	٦٥
● رجال من الرف العالى	(قصص)	سليمان الشطى	٦٦
● رأيت النخل	(قصص)	رضوان عاشور	٦٧
● ليلة حب مجنونة	(قصص)	ليلى العثمان	٦٨
● المستحيل والقيمة	(تجربة فى الديالكتيك)	بدر الديب	٦٩
● النعيم العائم	(مسرحية)	توفيق الحكيم	٧٠
● شمس بيضاء	(قصص)	محمد عبد السلام العمرى	٧١
● ديوان الملحقات	(قصص)	عبد الحكيم قاسم	٧٢
● شتاء داخلى	(قصص)	احمد زغلول الشيطى	٧٣
● حكاية شارعنا	(رواية)	وجيه الشربتلى	٧٤
● اذعان صغير	(قصص)	فهد العتيق	٧٥
● منحنى النهر	(قصص)	محمد البساطى	٧٦
● العشق أوله القرى	(قصص)	ابراهيم فهمى	٧٧
● اغلاق النوافذ	(قصص)	ابراهيم عبد المجيد	٧٨
● أجنحة الحصان	(قصص)	هالة البدرى	٧٩
● وش الفجر	(قصص)	يوسف ابو رية	٨٠
● حكى القرايا وحكى السرايا	(مسرحية)	ممدوح عدوان	٨١
● من دفتر العشق والغربة	(قصص)	جمال الغيطانى	٨٢
● البحر الرمادى	(قصص)	أحمد الشيخ	٨٣
● بستان الأزبكية	(قصص)	محمد عبد السلام العمرى	٨٤
● لحس العتب	(رواية)	خيرى شلبى	٨٥
● أحاديث جانبية	(قصص)	جميل عطية ابراهيم	٨٦
● رجل فى القلعة	(مسرحية)	أبو العلا السلامونى	٨٧
● مجرى العيون	(قصص)	سعيد الكفراوى	٨٨
● الكرز	(قصص)	ليلى الشربينى	٨٩
● ساعات الكبرياء	(قصص)	ادوارد الخراط	٩٠

٢٠٠٦

الأعداد القادمة :

● سلومى	(مسرحية)	محمد سلماوى
● غزو الأرانب	(قصص)	نبيل عبد الحميد
● قراءة فى جريدة الصباح	(قصص)	محمد سليمان
● اصلاح الصحراء	(رواية)	ادوار الخراط
● طقوس بشرية	(قصص)	رضا البهات
● شعر البلابل والكبرياء	(قصص)	محمد عبد الرحمن المر
● صندوق الدنيا	(قصص)	فؤاد قنديل
● العودة من داخل الراس	(قصص)	عبد الفتاح طزق
● خد الجميل	(رواية)	يوسف القعيد
● عنترة فارس هذا الزمان	(مسرحية شعرية)	أحمد سويلم
● قبلة الريح	(رواية)	نعيم عطية

الأعداد الممتازة القادمة

● المعذبون فى الأرض	(روايـــة)	طه حسين
● قنطرة الذى كفر	(روايـــة)	د. مصطفى مشرفة
● خيوط العنكبوت	(روايـــة)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● ابراهيم الثانى	(روايـــة)	ابراهيم عبد القادر المازنى
● نائب عزرائيل	(روايـــة)	يوسف السباعى
● فساد الأمكنـة	(روايـــة)	صبرى موسى
● قصص مختارة	(قصـــص)	يوسف ادريس
● الجبـل	(روايـــة)	فتحى غانم
● قصص مختارة	(قصـــص)	يوسف الشارونى
● أغنية الرياح الأربع	(د. شعرية)	على محمود طه
● بحيرة المساء	(قصـــص)	ابراهيم أصلان

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٧٦٣/١٩٩٤

ISBN — 977 — 01 — 4000 — 7

ان ابطال الكاتب جميعاً في قصص «ساعات الكبرياء» ينتهون إلي لحظة هذا الوجه المنحوت الذى فقد القدرة على الخلاص بعد أن هبط الليل ومرت السفينة «الوحش» التى كانت تحمل مع الموت والافتراس والاحباط امكانيات الخلاص والتفتح والخلود. وقد نستطيع أن نتابع هذه النهاية الموحدة فى القصص جميعاً إذا عدنا لمناقشة «الساعات» كمجموعة متكاملة، ولكننا نجد هنا صورة مجردة ورمزية معاً لهذه النهاية مصاغة فى الخطبة التى يوجهها الكاتب للناس بعد نزوله من قمة الرؤية. غير أن خطابه الذى يوجهه مباشرة «لكم» تمر به المواكب «أرواح محبوسة فى حفر قبورها» ولا تستطيع الرؤية أو الخطاب ان تجعل الناس يتوقفون أو يتكلمون أو يقاومون، ويبقى السؤال:

«ماذا يفعلون؟ إلى أين يذهبون؟». انهم جميعاً «أرواح تنادى بصوت مكتوم تنويعات شائهة على اصل بسيط وجليل قائم عند اساس صخر الجسم الذى ينحت ويسقط منه فتات الحجر لتترك مسوخ النقوش المعراة،طبقة بعد طبقة».

ولست أرى أوضح من هذه السطور لصياغة م
التنويعات التى قدمها الفنان فى «الساعات» على «أصل
وجليل قائم عند اساس صخر الجسم». فهو دائماً فى ق
يبدأ منه ويعتمد عليه ويراه دائماً وهو يتعرى مع
الحياة والمجتمع حتى يصبح مسخاً ونقوشاً معراة.



١٠٠ قرش

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب